تراث الترسُّل الديواني للقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر
مقاربة منهجيَّة

للدكتور/ نبيل محمد رشاد
أستاذ الدراسات الأدبية المساعد
بقسم اللغة العربية
بكلية التربية – جامعة عين شمس

مقدمة

***

(١)

تدور هذه الدراسة حول "تراث الترسُّل الديواني للقاضي محيي الدين ابن عبدالظاهر"، وهو موضوع من موضوعات أدب مصر الإسلامية الجديرة- من وجهة نظري- بالبحث والدرس لأسباب يتعلق بعضها بالكاتب، ويتعلق بعضها الآخر بنصوص هذا التراث.

وأول هذه الأسباب هي أن القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر كان كاتبًا، وشاعرًا، ومؤرخًا من كتاب مصر وشعرائها ومؤرخيها المشهورين في النصف الثاني من القرن السابع الهجري الذين فاح أريج ذكرهم على ألسنة معاصريهم ومن جاء بعدهم من أهل القرون الماضية، فها هو ذا شهاب الدين النويري (ت٧٣٣هـ) يقول في حقه: "كان - رحمه الله - من أجلِّ كُتّاب العصر، وفضلاء المصر، وأكابر أعيان الدول، والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأُوَل، له من النظم الفائق ما راق صناعة وحُسْنا، ومن النثر الرائق ما فاق بلاغة ومعنى، فقصائده مُدَوَّنَةٌ مشهوره، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطوره، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضح محجة، وهو - رحمه الله - ممن عاصرته ولسوء الحظ لم أشاهد محيَّاه الوسيم، ولم أفز بالنظر إلى طلاقة وجهه الكريم، والذي أورده من كلامه هو مما نقلْتُهُ مِنْ خطه، وتلقَّيْتُهُ مِمَّن سَمِعَهُ من لفظه"[١].

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب: لشهاب الدين النويري، السفر الثامن، صحَّحَهُ الأستاذ أحمد الزِّين، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة،د.ت، ص١٠١، ١٠٢.

وها هوذا ابن حبيب الحلبي (ت ٧٧٩هـ) يصفه فيقول: "كان جليل القدر، كبير المحلّ، حَسَنَ الكتابة، غزير الفضل، جميل السيرة، أوحد عصره في الإنشاء، يضرب به المثل، وشهرته بالرئاسة والآداب والتقدم عند الملوك تغني عن الشرح، وله النظم الرائق الجامع لأنواع المحاسن"(١).

ومما لا ريب فيه أن هذا الثناء العريض قد كان سببًا من أهم الأسباب التي دفعتني إلى تَتَبُّعِ رسائل القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر، ومحاولة جمعها، وقراءتها، وكتابة هذه المقاربة المنهجية عنها.

وهناك سبب ثان دفعني إلى إجراء هذه الدراسة؛ وهو تَبَدُّلُ رأي الدكتور شوقي ضيف في ترسل هذا الكاتب من الإسراف في الاستهجان والتَّنَقُّص إلى الإفراط في الإعجاب والتقدير.

ففي كتابه: "الفن ومذاهبه في النثر العربي" شَنَّ أستاذُنَا هجومًا عنيفا على القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر، ورأى في كتابته تكلُّفًا وتصنُّعًا، وفي هذا يقول: "وأكبر الظن أنه قد اتضحت للقارئ طريقة محيى الدين، وهي طريقة تقوم على التَّصَنُّع، وهو تَصَنُّعٌ ينتهي به إلى أن يكثر من الجناس المعكوس، وهو لا يكتفي بهذا الجناس وما فيه من مشقة، بل نراه يذهب مذهبًا بعيدًا في استخدام التورية، وقد كان يستهدف لها في جميع كتاباته"(٢)، ويقول في موضع آخر من الكتاب نفسه: "أرأيت كيف تؤلف الرسائل عند أشهر كتاب العصر المملوكي؟ إنها تؤلف من ألواب البديع، واصطلاحات العلوم وتضمين الأبيات والأشعار، والاقتباس من آي الذكرالحكيم، وقد أصبحت هذه الأشياء تلصق إلصاقًا، وتلفق تلفيقًا، فليس

---

(١) تذكرة النبيه بأيام المنصور وبنيه، لابن حبيب الحلبي، تحقيق الدكتور محمد محمد أمين ومراجعة الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦، المجلد الأول، ص١٦٤.

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص٣٨٢، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.

هناك كاتب ممتاز لهذا العصر، إلا وهو يسعى إلى جلب هذه الفنون في نثره يقتسرها اقتسارًا، وقد يعتسفها اعتسافًا"[١].

كتب الدكتور شوقي ضيف هذا الكلام في عام ستة وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية، وكان يبلغ من العمر وقتها ستة وثلاثين عامًا[٢]، وبعد مرور ثمانية وثلاثين عامًا من تاريخ كتابة هذا الكلام، وبالتحديد في عام أربعة وثمانين وتسعمائة وألف نشر الدكتور شوقي الجزء السادس من موسوعته في تاريخ الأدب العربي، وهو الجزء الذي قسره على الحديث عن الأدب بمصر والشام في عصر الدول والإمارات، وفيه يقول عن ترسُّل القاضي محيى الدين أنه يتدفق "دون أي عائق من لفظ غريب، أو أسلوب ملتو، بل سيولة وعذوبة مع السجع الرشيق، ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشيء منها"[٣]، ويقول: "ودائمًا نحس عنده العذوبة والسلاسة، وكأنه يستمد من نبع فيَّاض لا يغيض أبدًا"[٤]، ويصف ملكته الأدبية فيقول: "كانت ملكته الأدبية خصبة، فهي ما تزال ترفده بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا بسجعها فحسب، بل أيضًا بجرسها وحسن انتخابه لها، وما يُوفره لها من محاسن بديعة بقدر الحاجة دون تَكَثُّرٍ يُحِيلَها إلى تَكَلُّفٍ شديد"[٥].

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص٣٨٢، ٣٨٣.

(٢) ولد الدكتور شوقي ضيف١٩١٠م، وتوفي في عام ٢٠٠٥م، وبذلك يكون قد عاش –رحمه الله– خمسة وتسعين عامًا، يراجع مقالنا: الدكتور شوقي ضيف عمر مديد وعطاء غزير" نشرناه بعد وفاته بجريدة الأخبار في ٦/٥/٢٠٠٥م.

(٣) تاريخ الأدب العربي (٦)، عصر الدول والإمارات، مصر والشام، ص٤١٧.

(٤) السابق نفسه، ص٤١٨.

(٥) السابق نفسه، ص٤١٩.

وثالث هذه الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذه المقاربة المنهجية هو تقليل الدكتور عبدالعزيز الخويطر من شأن القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر كاتبًا، وشاعرًا، ومؤرخًا.

ففي عام ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م نشر الدكتور عبدالعزيز بمدينة الرياض تحقيقه لكتاب "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" للقاضي محيى الدين، وهو الكتاب الذي يؤرخ فيه صاحبنا للظاهر بيبرس وما جرى في عصره من أحداث.

وقدم المحقق بين يدي النص تمهيدًا، ومقدمة، وفي التمهيد تحدث عن تاريخ علاقته بمخطوطة الروض، والنسخ الخطية التي اعتمد عليها في تحقيق الكتاب، ومنهجه في هذا التحقيق، وترجم في المقدمة للقاضي محيى الدين بن عبدالظاهر.

وفي هذه الترجمة أورد ثلاثة نصوص في الثناء على صاحبنا للجلال السيوطي المتوفى ٩١١هـ، وابن تغري بردي الأتابكي المتوفى ٨٧٤هـ، وأبي العباس القلقشندي المتوفى ٨٢١هـ[١]؛ لقد أورد نصوص هؤلاء العلماء ثم قال: "قد يكون لهذا الثناء من معاصريه ما يبرِّره إذا ما قورن بكتاب عصره، إلا أن إنتاجه إذا ما فُحِصَ منفردًا، أو قورن بإنتاج زمن سابق فإنه لا يكاد يستحق مثل هذا الإطراء، والمقَتطفات التي أوردها من شعره في سيرة بيبرس لا تكاد تصل إلى درجة عالية، وإذا ما قورن بمعاصريه من الشعراء فإنه لا يعد من المبرزين منهم، وعندما نبحث نثره

---

(١) لم أشأ ترتيبهم تاريخيًا من الأقدم إلى الأحدث كما تقتضي المنهجية العلمية، وآثرت ذكرهم بالترتيب نفسه الذي أورده الدكتور الخويطر في كلامه، ينظر: الروض الزاهر، الطبعة الأولى، ص١١.

منفصلاً فيما بعد عند تقدير القيمة الأدبية للسيرة فسوف يتبيَّن أيضًا أن آراء معاصريه فيه كانت متناهية في حسن الظن"[١].

وها أنت ذا ترى أن الدكتور الخويطر لم يقرأ شيئًا مما كتبه معاصرو القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر وقريبو العهد به من ناحية، وضرب بأقوال أئمة التاريخ والأدب من أهل القرنين التاسع والعاشر الهجريين التي أوردها عرض الحائط من ناحية أخرى، ليذكر لنا هذا الذي قال في الحطِّ من شأن القاضي محيى الدين في الإبداع الشعري، والكتابة النثرية.

ويبدو أن الدكتور الخويطر وجد نفسه في مأزق، فراح يتلمَّسُ أسبابا غير علمية لتوهج القاضي محيى الدين ونبوغه وذيوع صيته فقال: "ليس من الواضح تمامًا إذا كان أسلوب محيى الدين هو الذي أثر على معاصريه، أو ما كان يتمتع به هو وعائلته من احترام وتقدير، أو كلاهما معًا؛ فأسلوبه جديد، وقد يكون هذا مبعث الإعجاب، وما كان فيه من أخطاء اغتفرت لأجل الكاتب، إذ كان مصريًا، عربيًّا، قاضيًا، كاتبًا للسلطان، وصاحب هذه الصفات يستطيع عند الحاجة أن يخدم مواطنيه ويحمي مصالحهم، وعمله هذا يُكْسِبُهُ محبتَهُم، واحترامهم، وتقديرهم"[٢].

ويقصد الدكتور عبدالعزيز الخويطر بالأخطاء التي أغْتُفِرتْ للقاضي محيي الدين بسبب كونه كاتبًا للسلطان، ورغبة نقدة النثر أن يقضي لهم حاجاتهم، ويحمي لهم مصالحهم؛ يقصد الدكتور الخويطر ما نبَّه عليه أبو العباس القلقشندي في صبح الأعشى عند حديثه عن الألقاب التي تُكْتَبُ لولاة العهود حيث نقل عن شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله العمري في التعريف أنه: "يُقْتَصَرُ فيها على الألقاب المفردة دون المركبة"[٣]، ثم علَّق

---

(١) الورض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، مقدمة التحقيق، ص١١، ص١٢.

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، مصدر سابق، مقدمة التحقيق، ص١٢.

(٣) صبح الأعشى: ١٥٩/١٠.

على كلام ابن فضل الله قائلاً: "قلت: وعلى هذه الطريقة كتب القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر ألقاب الملك الصالح على بن المنصور قلاوون في عهده بالسلطنة عن والده المذكور فقال: ولما كان المقام العالي الولدي السلطاني الملكي الصالحي العمادي، وعلى نحو من ذلك كتب المشار إليه ألقاب الملك السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس في عهده بالسلطنة عن والده المذكور فقال: وخرج أمرنا بأن يُكْتَبَ هذا التقليد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان محمد، إلا أنه قد خالف ذلك فيما كتب به في ألقاب الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون في عهده بالسلطنة عن والده فجمع بين الألقاب المفردة والمركّبة فقال: هذا عهدنا للسيد الأجل، الملك الأشرف، صلاح الدنيا والدين، فخر الملوك والسلاطين، خليل أمير المؤمنين، ولم يتعرض في التعريف لحكاية هذا المذهب، مع كون كلام ابن عبد الظاهر حجة يُرْجع إليه في هذا الفن"(١).

وفي تصوري أن نص القلقشندي يدل بوضوح على أن صاحبه يعود باللائمة على ابن فضل الله العمري الذي لم يَحْكِ مذهب القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر وصاغ قاعدة ألقاب ولاة العهود دون استقراء جيد لما في ديوان الإنشاء من نصوص أئمة الكتابة.

وهب أن القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيي، وأبا العباس القلقشندي كليهما قد تجنبا تَنَقُّص القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر، وتناسى أولهما عامدًا حكاية مذهبه، واغتفر له الثاني خطأه، فهل يصح أن يقال: إنهما فعلا ما فعلا لما يرجوان من سعي صاحبنا لهما في حوائجهما عند السلطان؟.

---

(١) صبح الأعشى: ١٠/١٦٠، والروض الزاهر ص١٢ من مقدمة التحقيق.

والجواب: لا؛ لأن القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر قد توفى عام ٦٩٢هـ[١]، قبل ميلاد صاحب التعريف بثماني سنوات[٢]، وقبل ميلاد صاحب الأعشى أربعة وستين عامًا[٣].

كانت هذه هي الأسباب التي دفعتني إلى دراسة تراث الترسُّل الديواني للقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر.

(٢)

وقد جاءت هذه الدراسة في أربعة مباحث هي على الترتيب:

- **المبحث الأول:** ما تبقى من نصوص رسائله الديوانية: أنواعه ومظانه
- **المبحث الثاني:** نصوص هذه الرسائل: قراءة موضوعية.
- **المبحث الثالث:** الاقتباس من القرآن الكريم في نصوص هذه الرسائل.
- **المبحث الرابع:** استدعاء الموروث الشعري في نصوص هذه الرسائل.

وفي المبحث الأول تحدثت عن إحدى وثلاثين رسالة ديوانية كتبها القاضي محيي الدين مُبَيِّنًا نوعها، ومحدِّدًا مكان وجودها، وشارحًا موضوعها، واستخدمت منهج النقد التاريخي في نقد سندها ومتنها، وأعنى بالسند في هذا السياق تلك التقدمة التي كان يكتبها المؤرخ، أو الأديب، أو الناقد بين يدي إيراده لها، وأعنى بالمتن في هذا السياق نص الرسالة نفسه، وقد أفادني منهج النقد التاريخي هذا فائدة جُلَّى في تصحيح أخطاء المؤرخين

---

(١) الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، ٢٥٨/١٧.باعتناء دوروتيا كرافولسكي

(٢) ولد شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله العمري سنة٧٠٠هـ، وتوفي عن تسعة وأربعين عامًا في سنة ٧٤٩هـ، يراجع في ترجمته: أعيان العصر، وأعوان النصر: لصلاح الدين الصفدي، ١/ ٤١٧- ٤٣٤.

(٣) ولد أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي عام ٧٥٦هـ، وتوفي عن خمسة وستين عامًا في جمادي الآخرة من عام ٨٢١هـ. ينظر: إنباء الغمر بأبناء العمر: للحافظ بن حجر العسقلاني، تحقيق الدكتور حسن حبشي، ١٧٨/٣- ١٧٩.

القدماء، والدارسين المعاصرين الذين حققوا بعض كتب القاضي محيي الدين، أو كتبوا بحوثًا حولها.

وفي المبحث الثاني تحدثت عمن أرسل هذه الرسائل من السلاطين والوزراء، وعمن أُرْسِلَتْ إليهم من ملوك الشرق والغرب ممن كانت لهم علاقات دبلوماسية مع الدولة المملوكية، وتحدثت عن تصوير هذه الرسائل لما قامت به مصر من دور في ردّ عادية الصليبيين والتتريين على بلدان الوطن العربي، وعن تصويرها لجوانب الحياة الاجتماعية بلونيها البهيج والقاتم، فلقد صَّور القاضي محيي الدين احتفال الظاهر بيبرس بزواج ولده الملك السعيد محمد بركة، وذكر أن هذا الاحتفال ظل أسبوعا كاملاً، وقصَّ علينا فنون الألعاب التي شارك فيها الظاهر بيبرس بنفسه، حيث كان هو وولده يلهوان ويلعبان، ومن حولهما أمراء المماليك والقضاة والكتاب وعامة الناس، وحدَّثنا عن أصناف الطعام التي قُدِّمَتْ، وعن أنواع الصدقات التي أُخْرِجَتْ في أيام الاحتفال.

وصَّوَرتْ رسائل القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر جانبًا قاتمًا من جوانب الحياة الاجتماعية في مصر المملوكيَّه، وذلك حين تحدث عن تعاطي السوقة والدهماء المشروبات المسكرة كالحشيشة وغيرها، ووصف وصفًا دقيقًا ما أصاب هذه الفئة بسبب انهماكها في تعاطي المسكرات من أمراض متنوعة: عضوية ونفسية.

وفي المبحث الثالث تحدثت عن الاقتباس من القرآن الكريم في نصوص هذه الرسائل وبراعة القاضي محيي الدين في التمهيد للفظة القرآنية، أو العبارة القرآنية قبل إيرادها في نصه، وسجلت مالاحظته من إسراف القاضي محيي الدين في الاقتباس من القرآن الكريم، وأرجعت ذلك إلى رغبته في إضفاء لون الفخامة على ما يكتب نظرا لجلال الدولة المصرية، وجلال شأن حكمها.

وفي المبحث الرابع دار الحديث حول استدعاء الموروث الشعري في نصوص هذه الرسائل، وقد بدأته بجلاء نقطتين هامتين أولاهما: سر إيثاري المصطلح التراثي "الاقتباس" عند الحديث عن استمداء القاضي محيي الدين من نصوص القرآن الكريم، والأخرى: موقف النقاد العرب القدماء من إيراد الأشعار في غضون الرسائل الديوانية.

وانطلقت بعد ذلك أرصد بعض ما عرف سبيله من نصوص كتاب ديوان الحماسة لأبي تمام إلى رسائل القاضي محيي الدين، وكذلك ما عرف سبيله من نصوص ديواني أبي تمام وأبي الطيب المتنبي إلى هذه الرسائل، مع بيان دورها في إثراء نصوص هذه الرسائل بالمعاني.

وبعدُ ... فهذا ما هدى الله إليه، وأعان عليه، ولئن أطال – عَزَّ شأنه – في صفحة العمر، وبسط في فسحه الأجل، وأسبغ عليَّ نعمة التوفيق لَأَخُصَّنَّ شعر هذا القاضي الفاضل ببحث مستقل، أضعه به في حاقِّ موضعه بين شعراء عصره، وشعراء العربية على مرّ العصور.

المبحث الأول

ما تبقى من نصوص رسائله الديوانية: أنواعه ومظانه

١- نسخة كتاب بالبشارة بهزيمة التتار، كتب بها عن الملك المظفر قطز إلى صاحب اليمن، وفي تصوري أنه من الممكن أن يرجع تاريخ هذا النص إلى شهر شوال من عام ٦٥٨هـ بعد انتهاء موقعة عين جالوت، ولقد أورد القلقشندي نسخة هذا الكتاب في صبح الأعشى، وقدَّم لها بقوله: "وأظنها من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر"[(١)]، وعلق عليها بعد أن أوردها كاملة بقوله: "قلت: وهذه النسخة تلقفتها من

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، لأبي العباس القلقشندي، سلسلة الذخائر، العدد ١٣٦، الهيئة العامة لقصور الثقافة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، القاهرة ٢٠٠٤م، ٣٦٠/٧.

أفواه بعض الناس، وذكر أنه وجدها في بعض المجاميع فحفظها منه، وهي في غاية من البلاغة، إلا أنها لا تخلو من تغيير وقع في بعض أماكنها، ولعله من الناقل لها، من حيث إنه ليس من أهل هذه الصناعة، ولم يَسَعْني تَرْكُ إيرادها لما فيها من المحاسن، ولانفرادها بأسلوب من الأساليب التي كُتِبَ بها إلى ملوك اليمن، فأوردتها على ما هي عليه، وجزى الله خيرا مَنْ ظفر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها، وصَحَّحها، وأصلح ما فيها"[١].

ويذكر القلقشندي أن صاحب اليمن الذي كُتِبَتْ له هذه البشارة هو المنصور، وهو يقصد الملك المنصور عمر بن علي بن رسول، وهذا خطأ، لأن الملك المنصور هذا مات مقتولاً عام ٦٤٨هـ[٢]، أي قبل موقعة عين جالوت بعشر سنوات، والصواب – فيما أرى – أن هذه الرسالة قد كُتِبَتْ لابنه المظفر يوسف الذي ولى أمر اليمن بعد أبيه، "وصفا له، وطالت مدته، وبقى إلى أن مات بحصن تَعِزَ سنة أربع وتسعين وستمائة"[٣].

وهناك خطأ آخر، ولكنه في هذه المرة في متن رسالة القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر ولم يلتفت إلى تصحيحه أبو العباس القلقشندي، ولم يلتفت إلى تصحيحه مصححو دار الكتب المصرية عند نشر صبح الأعشى في ثلاثينيات القرن الماضي على الرغم مما كانوا عليه من سعة العلم، ووفرة الفضل، وشدة الدقة، وجودة الضبط، ويكمن هذا الخطأ في زعم

---

(١) السابق نفسه ٣٦٢/٧.

(٢) مآثر الإناقة في معالم الخلافة لأبي العباس القلقشندي، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، ٨٦/٢، الكويت، ١٩٦٤م.

(٣) السابق نفسه ١٢٦/٢.

راوي النص أن هذه النصرة كانت في رجب الفرد[١]، والصواب أنها كانت في العشر الأواخر من رمضان[٢].

٢- نسخة تقليد بالوزارة كَتَبَ به للصاحب بهاء الدين بن حنا[٣] بعد أن قلَّده الظاهر بيبرس إياها في ربيع الأول من عام ٦٥٩هـ[٤]، وقد وردت نسخة هذا التقليد في صبح الأعشى[٥]، وفي حسن المحاضرة للسيوطي[٦].

٣- نسخة تقليد بقضاء القضاة بالديار المصرية، ونظر أموال اليتامى والأوقاف، كَتَبَ به في جمادي الأولى من عام ٦٥٩هـ لتاج الدين بن بنت الأعز[٧]، وقد ورد نص هذا التقليد كاملاً في نهاية الأرب في فنون الأدب[١].

---

(١) صبح الأعشى، مصدر سابق، ٣٦٠/٧.

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي الأتابكي ٧٩/٧.

(٣) هو الصاحب بهاء الدين أبو الحسن علي بن سديد الدين محمد بن سليم المعروف بابن حنا المصري المتوفى ٦٧٧هـ، ترجم له الصفدي في الوافي بالوفيات ٣٠/٢٢، تحقيق رمزي بعلبكي.

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري المتوفى ٧٣٣هـ، الجزء الثلاثون، تحقيق الدكتور محمد عبدالهادي شعِيرة، ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م، ص١٨، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصدر سابق، ١٠٨/٧.

(٥) صبح الأعشي، مصدر سابق، ٢٧٠/١١- ٢٧٤.

(٦) حسن المحاضرة في أخبارمصر والقاهرة، لجلال الدين السيوطي، وضع حواشيه خليل المنصور، ١٩٤/٢- ١٩٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م

(٧) هو تاج الدين عبدالوهاب بن أبي القاسم خلف بن أبي الثناء محمود بن بدر

٤- نسخة تفويض في أعمال السلطان كتبها عن الظاهر بيبرس لولده الملك السعيد محمد بركة خان عام ٦٦٢هـ، ويذكر الدكتور مراد كامل أن هذا الكتاب كان خاصًا بولاية العهد[٢]، وهذا خطأ؛ لأن ولاية العهد كانت في التاسع من شهر صفر ٦٥٨هـ على ما يروي ابن تغري بردي الأتابكي في النجوم الزاهرة[٣]، أمَّا ما كان في عام ٦٦٢هـ فهو تفويض لوليّ العهد في أعمال السلطان، ولقد أقدم الظاهر بيبرس على هذا التفويض غداة تأهبه لمغادرة الديار المصرية لملاقاة التتار ووقف تحركاتهم في شمال الشام، ويرى الدكتور سعيد عاشور أن الظاهر بيبرس لم تكن له مندوحة عن ذلك ليقيم الملك السعيد "بديار مصر أثناء غيبة أبيه"[٤]، وها هو ذا القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر يحكي ما حدث فيقول " وفي يوم الخميس ثالث عشر شوال من هذه السنة أركب ولده الملك السعيد بشعار السلطنة[٥]، وخرج بنفسه في ركابه، وحمل

العلامي المصري المتوفى ٦٦٥هـ، تراجع ترجمته في رفع الإصر عن قضاة مصر، لابن حجر العسقلاني، تحقيق الدكتور علي محمد عمر، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢٥٨ وما بعدها، ترجمة رقم ١٢٨.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، مصدر سابق، ٣٠/ ١٩- ٢٢.

(٢) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور للقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر، تحقيق الدكتور مراد كامل، ومراجعة الشيخ محمد علي النجار، سلسلة تراثنا، نشر الإدارة العامة للثقافة بوزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، مقدمة التحقيق، ص١١.

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصدر سابق، ١٤٤/٧.

(٤) العصر المماليكي في مصر والشام، د. سعيد عبدالفتاح عاشور، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٦٦.

(٥) شعار السلطنة: هو كل ما يكون في موكب السلطان الذي يسير فيه، وهو يتكون من مقدّم المماليك، والاستادار وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن، ويزيد على ذلك

الغاشية[١] راجلاً بين يديه، ...، وكتب مؤلف السيرة المولى محيي الدين بتفويض عهد السلطنة له، وفي سابع عشر الشهر المذكور اجتمع الأمراء وقاضي القضاة والعلماء وقرئ التقليد"[٢].

ولقد أورد القاضي محيي الدين نص هذا التفويض في كتابه الموسوم بالروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر[٣]، وأورده – أيضًا – أبو العباس القلقشندي في صبح الأعشى[٤].

٥- نسخة رسالة بفتح الملك الظاهر بيبرس لقيسارية[٥] من بلاد الروم، واقتلاعها من أيدي التتار، واستيلائه على ملكها، وجلوسه على تخت بني سلجوق، ثمَّ العود منها إلى الديار المصرية، ويرجع تاريخ هذه الرسالة إلى شهر جمادي من عام ثلاثة وستين وستمائة، وقد كتب بها القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر إلى الصاحب بهاء الدين علي بن

في السفر كل ما تدعو إليه الحاجة من الأطباء والكحَّالين، والجرائحية، وأنواع الأدوية والأشربة والعقاقير. صبح الأعشى ٤/٤٩.

(١) الغاشية: هي – كما يقول القلقشندي – "سرج من أديم مخروزة بالذهب، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تُحْمَلُ بين يدي السلطانِ عند الركوب في المواكب الحَفِلَة، يحملها الرِّكاب داريَّة، رافعًا لها على يديه، يلفتها يمينًا وشمالاً، وهي من خواص مملكة الديار المصرية". صبح الأعشى ٤/٧.

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، للقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ص٢٠٤، ٢٠٩.

(٣) السابق نفسه ص٢٠٣.

(٤) صبح الأعشى ١٠/١٦٢- ١٦٦.

(٥) قيسارية بلدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين عكا ويافا، فتحت في صدر الإسلام في العام التاسع عشر من الهجرة في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب τ، وذلك على يد معاوية بن أبي سفيان. يراجع تاريخ الرسل والملوك، لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ذخائر العرب، دار المعارف، ٣/٦٠٣، ٦٠٤.

حنا وزير السلطان، وتكمن قيمة هذه الرسالة في أن منشئها القاضي محيي الدين كان في ركب السلطان الظاهر بيبرس المصاحب له في سفره، ومن ثمّ فهو شاهد عيان يحكي في رسالته ما جرى أمام ناظريه من وقائع، وما شارك فيه بنفسه من مفاوضات.

واحتفظ بنص هذه الرسالة كاملاً كاتبها في مؤلَّفِه "الروض الزاهر"[١]، والقلقشندي في صبح الأعشى[٢].

٦- نسخة تقليد بقضاء القضاة الشافعية كتب به لقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز حين استقر أحد القضاة الأربعة، ويرجع تاريخ هذا التقليد إلى شهر ذي القعدة من سنة ثلاث وستين وستمائة، واحتفظ بنصه كاملاً القلقشندي في صبح الأعشى[٣].

٧- نسخة كتاب كتب به إلى البولس بيمند[٤] ملك الفرنج، المستولى على طرابلس من الشام وأنطاكية[٥] من بلاد العواصم[١]، حين غزاه الملك

---

(١) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص٤٥٣ إلى ص٤٧١.

(٢) صبح الأعشى ١٤/ ١٣٩- ١٦٥.

(٣) صبح الأعشى ١١/١٧٥- ١٧٧.

(٤) هو بوهيموند السادس أمير أنطاكية في عصر الظاهر بيبرس، اعتلى إمارة أنطاكية بعد وفاة أبيه في عام ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، وظل أميرًا عليها إلى أن مات في عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م. يراجع : العصر المماليكي في مصر والشام للدكتور سعيد عاشور، مرجع سابق، ص٥٩.

(٥) أنطاكية بسكون الكاف وفتح الياء، أو بكسر الكاف وتشديد الياء وفتحها بلدة سوريَّة قديمة، فُتِحَتْ في العام الخامس عشر من الهجرة في خلافة عمر بن الخطاب τ على يد أمين الأمة أبي عبيدة عامر بن الجرّاح، وهي ثاني إمارة أسسها الصليبيون في الشرق بعد إمارة الرّها، وتقع أنطاكية على الضفة اليسرى لنهر العاصي على بعد ٣٠كم من شاطئ البحر الأبيض المتوسط. يراجع نهاية الأرب في فنون الأدرب، مصدر سابق: ٣٠/٣١١ وما بعدها، والعصر المماليكي

الظاهر بيبرس في طرابلس، ثم قصد أنطاكية فأخذها منه عنوة، ويرجع تاريخ هذا الكتاب إلى شهر رمضان المبارك من عام ستة وستين وستمائة من الهجرة، واحتفظ به كاتبه في مُؤَلَّفِهِ[٢] الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، وشهاب الدين النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب[٣]، والقلقشندي في صبح الأعشى[٤].

٨- نسخة كتاب على لسان الملك الظاهر بيبرس كتب به إلى صاحب طرابلس الشام بعد أن استولى الجيش المملوكي على حصن عكَّار، ويرجع تاريخ هذا الكتاب إلى أواخر رمضان، أو أوائل شوال[٥] من عام تسعة وستين وستمائة هجرية، وقد أورد نصه كاملاً كاتبه في مؤلفه الروض الزاهر[٦]، والنويري في نهاية الأرب[٧].

٩- في شهر شوال من عام ٦٦٩هـ أرسل الظاهر بيبرس أسطولاً بحريًّا لتأديب صاحب قبرص الذي كان يعتدي بين الحين والحين على الأسطول البحري للدولة المملوكية في شرق البحر الأبيض المتوسط[٨]،

في مصر والشام للدكتور سعيد عاشور، مرجع سابق، ص٦٤.

(١) بلاد العواصم اسم ناحية، وليست موضعًا، وهي جزء من البلاد التي كانت تُعْرَفُ قديمًا ببلاد الأرمن، وأول من سمَّاها بذلك هارون الرشيد، قال القلقشندي: "والذي يظهر أنها سُمِّيَتْ بذلك لعصمتها ما دونها من بلاد الإسلام من العدو" إذ كانت متاخمة له، وواقعة في نحره. يراجع صبح الأعشى ٤/١٣٠.

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر من ص٣٠٩ إلى ص٣١٣.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٠/٣٠٧- ٣١١.

(٤) صبح الأعشى ٨/٢٩٩- ٣٠٢.

(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٠/٣٢٩.

(٦) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ٣٨٠- ٣٨١.

(٧) نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٠/٣٣٠-٣٣١.

(٨) العصر المماليكي في مصر والشام مرجع سابق ص٦٥.

وفي أثناء انشغال الظاهر بيبرس بحصار حصن القُرَين[١] ورد عليه كتاب من الملك القبرصي يفيد بأن ريحًا عاتية أعاقت الشواني[٢] المصرية وشلَّت حركتها، وأنه قام بالاستيلاء عليها، وأَسْرِ مَنْ كان فيها، فأمر الظاهر بيبرس القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر بأن يجاوب متملك قبرص عن كتابه، يقول القاضي محيي الدين "فكتبته" ثم أورد نصه كاملاً[٣].

١٠- نسخة كتاب كتب به عن السلطان الظاهر بيبرس أورده النويري في نهاية الأرب، وقال: إن القاضي محيي الدين كتب به إلى ملك الغرب[٤]، وأظن أن الذي كُتِبَ له هذا الكتاب هو صاحب إفريقية المستنصر بالله أبو عبدالله محمد بن أبي زكريا يحيي بن عبدالواحد الذي آل إليه حكمها بعد وفاة أبيه عام ٦٤٧هـ قبل سلطنة الظاهر بيبرس على مصر بإحدى عشرة سنة، وظل على إفريقية إلى أن توفى عام ٦٧٥هـ قبل وفاة الظاهر بيبرس بعام واحد[٥].

---

(١) القُرَيْن بضم القاف وفتح الراء وسكون الياء حصن منيع من حصون الأرمن، وكان لطائفة يقال لهم الاسبتار، يُنْظَر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٥٣/٧، هامش رقم ٣.

(٢) الشواني: الشيني والجمع الشواني لغة مصرية اسم للسفينة الكبيرة ذات الأبراج والقلاع للدفاع والهجوم، وكانت من أهم القطع يتكون منها الأسطول البحري في العصر المماليكي، وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد مائة وخمسين رجلاً، ويجذف بمائة مجذاف، يُنْظَر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، للدكتورة سعاد ماهر، دار الكاتب العربي للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٣٥٢.

(٣) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، مصدر سابق، ص٣٨٧، ص٣٨٨.

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ١٠٢/٨.

(٥) مآثر الإناقة في معالم الخلافة للقلقشندي، مصدر سابق، ١٠٠/٢، و١٢٩/٢-١٣٠.

والذي جعلني أظن هذا الظن هو ما ورد بنص الرسالة من الألقاب التي يختص بها صاحب تونس، قال ابن فضل الله العمري: "ملك تونس لا يَدَّعى إلا الخلافة، ويتلقب بألقاب الخلفاء، ويخاطب بأمير المؤمنين في بلاده، ...، ورسم المكاتبة إليه إلى الحضرة الشريفة العليَّة السَّنِيَّة السَّرِيَّة العالميَّة، العادليَّة، الكاملية، الأوحدية، حضرة الإمارة العدويَّة، ومكان الإمامة القرشية، وبقية السلالة الطاهرة الزكية، حضرة أمير المسلمين، وزعيم الموحدين القائم في مصالح الدنيا والدين..."[1]، وقال ابن عبدالظاهر في مفتتح كتابه يخاطب هذا الملك: "تحيات الله التي تتتابع وفودها وتتوالى... تخص الحضرةَ السَّنِيَّةَ، السَّرِيَّةَ، العالمية، العادلية، المستنصرية، ذخيرة أمير المؤمنين، وعصمةالدنيا والدين، ...، لا زالت سماؤها بالعدل مغدقة الأنواء..."[2].

١١- نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية المجاورة لتربة الإمام الشافعي τ كتب به لقاضي القضاة تقي الدين[3]، ابن قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، ولقد أورد القلقشندي نص هذا التوقيع كاملاً في

---

(١) التعريف بمصطلح الشريف، تأليف الشيخ الإمام العلامة القاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري، طبع بمطبعة العاصمة، على نفقة صاحبها محمد مسعود، محرر جريدتي الآداب وممفيس، بمصر ١٣١٢هـ، ص٢٤، ٢٥.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ١٠٢/٨.

(٣) هو تقي الدين أبو القاسم عبدالرحمن بن تاج الدين أبي محمد عبدالوهاب بن القاضي الأعز أبي القاسم خلف بن محمود بن بدر العلامي المصري، ولد عام ٦٣٩هـ، قال عنه ابن حجر "كان ذا عِفَّةٍ ونزاهة، وسؤددٍ كامل، وعقلٍ وافر، وكان عارفًا بالأحكام، ثبت الجنان يقظا". يراجع: رفع الإصر لابن حجر، مصدر سابق، ترجمة رقم ١٠٩، ص٢٢٢، وما بعدها.

صبح الأعشى[١]، وبلغ من إعجابه به أن علَّق عليه بقوله "وفيما تقدَّم منِ إنشاء القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر من توقيع القاضي تقي الدين ابن بنت الأعز ما لا يُنْظَرُ مع وجوده إلى غيره"[٢].

١٢- نسخة جواب كتاب ورد عن صاحب الحبشة من سلطنة الملك المظفر صاحب اليمن على الملك الظاهر بيبرس بطلب مطران يقيمة لهم البطرك، ويرجع تاريخ نسخة هذا الجواب إلى عام اثنتين وسبعين وستمائة، وأورده النويري في نهاية الأرب[٣]، والقلقشندي في صبح الأعشى[٤].

١٣- نسخة جواب كتاب ورد إلى الملك الظاهر بيبرس من الأمير شمس الدين آقسنقر[٥] بفتح بلاد النوبة، ويرجع هذا الجواب إلى عام أربعة وسبعين وستمائة من الهجرة[٦]، ولقد أورد نصه صلاح الدين الصفدي في الوافي بالوفيات، وابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات[٧].

---

(١) صبح الأعشى ١١/٢٣١- ٢٣٤.

(٢) السابق نفسه ١١/٢٣٦.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٠/٣١٢- ٣١٣.

(٤) صبح الأعشى ٨/٤٠-٤١.

(٥) هو الأمير شمس الدين آق سنقر بن عبدالله النجمي الفارقاني المتوفى ٦٧٧هـ اتصل بخدمة الملك الظاهر بيبرس البندقداري وتقدَّم عنده، وهو الذي توجَّه إلى بلاد النوبة وافتتحها، يراجع: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لابن تغري بردي الأتابكي، تحقيق الدكتور محمد محمد أمين، ومراجعة الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، طبع مركز تحقيق التراث، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ٢/٤٩٤ وما بعدها، ترجمة رقم ٥٠.

(٦) نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٠/٣٤٤.

(٧) الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي، الجزء السابع عشر، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، الطبعة الثانية، من ص٢٥٨إلى ص٢٦٠، بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩١م، وفوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي، تحقيق الدكتور إحسان عباس،

١٤- نسخة صداق كَتَبَ به في يوم الخميس ثاني عشر ذي الحجة من عام أربعة وسبعين وستمائة للملك السعيد محمد بركة، ابن السلطان الظاهر بيبرس على غازية خاتون بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي الألفي قبل سلطنته، وقد أورد نص نسخة الصداق هذه شافع بن علي العسقلاني المصري الكاتب المتوفى ٧٣٠هـ في كتابه: الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور[١]، وشهاب الدين النويري في نهاية الأرب[٢]، والقلقشندي في صبح الأعشى[٣].

١٥- نسخة عهد كتب بها عن المنصور قلاوون[٤] لولده الملك الصالح علاء الدين علي[٥]، ويرجع تاريخ هذه الرسالة إلى شهر رجب من سنة تسع وسبعين وستمائة[٦]، وهي مما أورده القلقشندي من رسائل محيي الدين بن عبدالظاهر[٧].

١٧٩/١، ١٨٠، ١٨١، طبعة دار صادر، بيروت، لبنان.

(١) كتاب الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تأليف شافع بن علي العسقلاني المصري الكاتب المتوفى ٧٣٠هـ، تحقيق الدكتور عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م من ص٢٨إلى ص٣٥.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٠/ ٢٢٣- ٢٢٧.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٤/٣٠٠- ٣٠٣.

(٤) هو السلطان الملك المنصور أبو المعالي، وأبو الفتح قلاوون بن عبدالله الألفي الصالحي النجمي، ولي السلطنة بالديار المصرية سنة ثمان وسبعين وستمائة، وظل بها إلى أن توفى سنة تسع وثمانين وستمائة، ينظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصدر سابق، ٣٢٥/٧.

(٥) هو السلطان الملك الصالح علاء الدين أبو الفتح علي بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي، تُوُفِّيَ في حياة أبيه سنة سبع وثمانين وستمائة هجرية.

(٦) نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء الحادي والثلاثون، تحقيق الدكتور الباز العريني، ومراجعة الدكتور عبدالعزيز الأهواني، نشر مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٢هـ- ١٩٨٢م، ص٦٨.

(٧) صبح الأعشى، ١٥٩/١٠، و١٧٣/١٠- ١٧٧.

١٦- نسخة تذكرة كتب بها عن السلطان المنصور قلاوون لوليّ عهده الملك الصالح علاء الدين عليّ، ولأخيه الملك الأشرف خليل[١]، ولوالي القاهرة ومصر علم الدين سنجر[٢] الشجاعي يأمرهم "بالاحتراز التام على الرعية ظاهرًا وباطنًا"[٣]، وقد أوردها شافع بن علي العسقلاني المصري الكاتب في الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور[٤]، وقد يرجع تاريخ هذه الرسالة كما أتصور إلى شهر ذي الحجة من عام تسعة وسبعين وستمائة هجرية.

١٧- نسخة تذكرة كتب بها عن السلطان المنصور قلاوون بسبب قلعة صرخد[٥] من الشام عند استقرار سيف الدين باسطى[١] نائبًا لها، والأمير

---

(١) هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي، ولي السلطنة بعد وفاة أبيه في ذي القعدة من سنة تسع وثمانين وستمائة هجرية، ومات مقتولاً على يد بدر الدين بيدرا المنصوري سنة ثلاث وتسعين وستمائة هجرية.

(٢) هو علم الدين سنجر بن عبدالله الشجاعي، تولىَّ في عهد المنصور قلاوون وولده الأشرف خليل وظائف جليلة منها نيابة القلعة بالقاهرة، ونيابة الشام، وتولى في سلطنة الناصر محمد الأولى الوزارة، وكان أتابك العسكر، وهو من نجباء الترك وشجعانهم وعلمائهم، وكانت له مشاركة جيدة في الفقه والحديث، توفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة، ينظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مصدر سابق ٨/٥١-٥٢، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ٥/٤٢٢- ٤٢٣.

(٣) الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، مصدر سابق، ص١/١١.

(٤) الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، مصدر سابق، ص١١٨ إلى ١٣٥.

(٥) صرخد: بلدة سورية كثيرة الأشجار والثمار، كانت بها قلعة حصينة، واسمها الحالي صلخد باللام، يُنْظر: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الملوك والخلفاء والنواب لصلاح الدين الصفدي، تحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي،

عز الدين[٢]، واليًا في سنة تسع وسبعين وستمائة هجرية، ويذكر ابن الفرات أن القاضي أبا عبدالله محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري كتب هذه التذكرة بخطه من إملاء فتح الدين بن عبدالظاهر[٣]، وأوردها القلقشندي في صبح الأعشى منسوبة إلى محيي الدين بن عبدالظاهر[٤].

١٨- نسخة جواب كتاب ورد إلى السلطان قلاوون من أحمد أغا بن هلاوون ملك التتار في شوال سنة إحدى وثمانين وستمائة، وقد ورد هذا الجواب بتشريف الأيام والعصور غير منسوب إلى صاحبه[٥]، ونص أبو بكر الدواداري[٦] في الجزء الثامن من كنز الدرر وجامع الغرر على أنه من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر[١].

وزهير حميدان الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، إحياء التراث العربي، العدد ٨٦، دمشق ١٩٩٢م، ص١٩١.

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) هو الأمير عزالدين أيبك الفخري. يُنْظَر: السلوك لمعرفة دول الملوك، لتقي الدين المقريزي، الجزء الأول، القسم الثالث، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٩م، ص٦٨٣.

(٣) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، مصدر سابق، مقدمة التحقيق، ص٧٩.

(٤) صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١٠/١٦٦- ١٧٣.

(٥) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص١٠ إلى ص١٥.

(٦) هو أبو بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري (ت٧٣٢هـ)، والدواداريّ نسبة إلى الدوادار وهو "اسم فارسي مركب من لفظين أحدهما عربي، وهو الدواة، والثاني دار، ومعناه مُمْسك، وصاحب وظيفة الدوادارية هو الذي يحمل دواة السلطان، أو الأمير، أو غيرهَما، ويتولى أمرها مع ما يلحق ذلك من المهمَّات نحو: تبليغ الرسائل عن السلطان أو الأمير، وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف، وتقديم البريد، واستُحْدِثَ في عصر

١٩- نسخة منشور بإنعام السلطان الملك المنصور قلاوون على مملوكه الأمير ركن الدين بيبرس الدواداري[٢] بخمسة عشر طوشيا[٣]، كتبه القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر في الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانية وستمائة، وقد أورده بدر الدين العيني في كتابه: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان[٤].

٢٠- نسخة منشور كتب به للأمير بدر الدين بيدرا[٥] أستادار[١] الملك المنصور قلاوون أوردها القلقشندي في صبح الأعشى[٢]، وكتب القاضي

قلاوون أن اختص أحد الدوادارية بعلامة السلطان أي توقيعه". التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، لمحمد قنديل البقلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٣٩.

(١) كنز الدرر وجامع الغرر لأبي بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري، الجزء الثامن، وعنوانه الدُّرَّة الزّكيَّة في أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م، ص٢٥٤ إلى ٢٥٩.

(٢)هو الأمير ركن الدين بيبرس الدواداريّ المتوفى سنة خمس وعشرين وسبعمائة، ترجم له الصفدي في الوافي بالوفيات. يُنْظر: الوافي بالوافيات، الجزء العاشر، باعتناء جاكلين سوبله، وعلى عمارة، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م، ص٣٥٢.

(٣) الطوشي والجمع الطواشي، والطواشي هم: الخصيان الذين يستخدمون في الأماكن التي يسكنها المماليك الذين يشتريهم السلطان، أو في الحريم السلطاني، ينظر: العصر المماليكي في مصر والشام للدكتور سعيد عاشور، مرجع سابق، ص٤٥٥.

(٤)عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تأليف بدر الدين محمود العيني المتوفى ٨٥٥هـ، حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ٢/٣٢٤- ٣٢٦.

(٥) هو الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري، كان نائب السلطنة بالديار المصرية في أواخر عصر المنصور قلاوون وأوائل عصر الأشرف خليل، مات مقتولاً سنة ثلاث وتسعين وستمائة بعد قتله الأشرف خليل بيوم واحد، ينظر: تذكرة النبيه بأيام

محيي الدين بن عبدالظاهر هذا المنشور في شهر ربيع الآخر سنة سبع وثمانية وستمائة هجرية[٣].

٢١- نسخة عهد كتب بها عن المنصور قلاوون في شهر شعبان من عام سبعة وثمانين وستمائة[٤] لولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل، وقد أورد نص هذه الرسالة النويري في نهاية الأرب[٥]، والقلقشندي في صبح الأعشى[٦].

٢٢- نسخة كتاب عن السلطان قلاوون إلى صاحب اليمن ردًّا على كتاب عزَى فيه السلطان عن ولده الملك الصالح علي، ويرجع تاريخ هذا الخطاب إلى ما بعد شهر شعبان من سنة سبع وثمانين وستمائة هجرية، وهي مما أورده النويري في نهاية الأرب[٧]، والقلقشندي في صبح الأعشى[٨].

المنصور وبنيه لابن حبيب الحلبي المتوفي ٧٧٩هـ، تحقيق الدكتور محمد محمد أمين، راجعه وقدم له الدكتور: سعيد عبدالفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٦م، ١/١٦٨.

(١) الأستادار: وظيفة من وظائف أرباب السيوف، يتولى صاحبها "أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ، والشراب خاناه، والحاشية، والغلمان، وهو الذي يمشي بطلب السلطان، ويحكم في غلمانه، وباب داره، وله حديث مطلق، وتصرُّفٌ تام في استدعاء ما يحتاجه كل مَنْ في بيت السلطان من النفقات والكساوي، وما يجرى مجرى ذلك للمماليك وغيرهم". ينظر: صبح الأعشى ٤/٢٠.

(٢) صبح الأعشى ١٣/١٦٩- ١٧٠.

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي، مصدر سابق، ج١، ق٣، ص٦٨٧.

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ٣١/١٦٠.

(٥) نهاية الأرب في فنون الأدب ٨/١١١- ١٢٤.

(٦) صبح الأعشى ١٠/١٦٦- ١٧٣.

(٧) نهاية الأرب في فنون الأدب ٨/١٠٧- ١١١.

(٨) صبح الأعشى ٧/٣٥٧- ٣٦٠.

٢٣- نسخة كتاب كتبه عن الأشرف خليل إلى صاحب اليمن الملك المظفر يوسف بن عمر، قرين كتاب المنصور قلاوون المسيَّر إليه بالبشرى بفتح طرابلس الشام، ويرجع تاريخ هذا الكتاب إلى شهر ربيع الآخر من عام ثمانية وثمانين وستمائة[١]، وقد أورد نص هذا الكتاب النويري في نهاية الأرب[٢]، والقلقشندي في صبح الأعشى[٣].

٢٤- نسخة كتاب كتبه عن نفسه غِبَّ فتح طرابلس الشام على يد المنصور قلاوون يهنئه بهذا الفتح، ويرجع تاريخ هذا الخطاب إلى شهر ربيع الآخر من عام ثمانية وثمانين وستمائة هجرية، وأورد نصه النويري في نهاية الأرب[٤].

٢٥- نسخة كتاب عن الأمير بدر الدين بيدرا إلى الأمير حسام الدين طُرُنْطاي[٥] في التهنئة بفتح طرابلس الشام، ويرجع تاريخ هذا الكتاب أيضًا إلى عام ثمانية وثمانين وستمائة هجرية، وأورد النويري نصه في نهاية الأرب[٦].

٢٦- نسخة منشور كتب به عن الملك المنصور قلاوون لابنه الناصر محمد[٧] في سلطنة أبيه أورده القلقشندي في صبح الأعشى[١]، ولم

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ٣١/٤٦.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب ٥/١٥٦- ١٦٠.

(٣) صبح الأعشى ٧/٣٦٦- ٣٧٠.

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ٥/١٦٠-١٦١.

(٥) هو الأمير حسام الدين طُرُنْطاي بن عبدالله المنصوري، كان عظيم دولة أستاذه المنصور قلاوون، وكان قلاوون قد جعله نائبه بسائر الممالك، توفي عام ٦٨٩هـ، يُنْظَر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٧/٣٨٣.

(٦) نهاية الأرب في فنون الأدب٥/١٦١.

(٧) الناصر محمد بن سيف الدين قلاوون الألفي من أعظم سلاطين مصر الذين حكموها على مرِّ التاريخ، تولى السلطنة ثلاث مرات: الأولى عام ٦٩٣هـ، ومكث فيها أحد عشر شهرًا، والثانية عام ٦٩٨، ومكث فيها عشر سنين، والثالثة عام

استطع تحديد تاريخ هذا المنشور بدقة، ويمكن تحديده تحديدًا تقريبيًّا، لأن الناصر محمد وُلِدَ في عام ٦٨٤هـ، وتوفي والده المنصور قلاوون في عام ٦٨٩هـ، ومن ثمّ فإن تاريخ المنشور يرجع إلى أحد هذه الأعوام الستة الأخيرة من حياة المنصور قلاوون.

٢٧- نسخة عهد كتب به للسلطان المنصور قلاوون عن الخليفة أبي العباس أحمد الحاكم بأمر الله[٢]، أورده القلقشندي في صبح الأعشى[٣]، والسيوطي في حسن المحاضرة، ولعل تاريخ هذا العهد يرجع إلى عام ثمانية وسبعين وستمائة هجرية، ذلك العام الذي تقلَّد فيه السلطان قلاوون السلطنة.

٢٨- نسخة كتاب كتب به إلى صاحب اليمن[٤] عن السلطان المنصور قلاوون مُبَشِّرًا بفتوح صافيتا أوردها القلقشندي في صبح الأعشى[٥].

٧٠٩، وظل بها إلى أن وافته المِنيَّة عام ٧٤١، ويقول الحافظ ابن حجر "لم يَرَ أحدٌ مِثْل سعادة ملكه، وعدم حركة الأعادي عليه برًّا وبحرًا، مع طول المدة". ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، ٢٦٤/٤، وكتابنا: رائية جمال الدين التبريزي في واقعة مرج الصُّفَّر، نشر مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م، ص٣٠ وما بعدها.

(١) صبح الأعشى ١٦٧/١٣- ١٦٩.

(٢) هو الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن الحسين بن أبي بكر بن الأمير علي القُبّيّ بن الأمير حسن بن الراشد بالله أبي جعفر المنصور الحادي والثلاثين من خلفاء بني العباس بالعراق، بويع له بالخلافة سنة ستين وستمائة في عهد الظاهر بيبرس، وهو الثاني من الخلفاء بني العباس بالديار المصرية، ...، وبقى حتى توفي في شهور سنة إحدى وسبعمائة" ينظر: مآثر الإناقة، مصدر سابق، ١١٦/٢، ١١٨.

(٣) صبح الأعشى ١١٦/١٠- ١٢٠، وحسن المحاضرة، لجلال الدين السيوطي، ١١١/٢- ١١٣.

(٤) هو الملك المظفر يوسف بن عمر بن عليّ بن رسول.

(٥) صبح الأعشى ٣٥٣/٧-٣٥٧.

٢٩- نسخة توقيع بفُتوَّة[١]، والتوقيعات بالفُتُوَّة هي مما كان يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية من الولايات التي تقع على سبيل الندور[٢]، قال القلقشندي في تقديمه هذا التوقيع "اعلم أن طائفة كبيرة من الناس يذهبون إلى إلباس لباس الفُتُوَّة، ويقيمون لذلك شروطًا وآدابًا جارية بينهم، وينسبون ذلك في الأصل إلى أنه مأخوذ عن الإمام علي كرم الله وجهه، والطريقة الجاري عليها أمرهم أنه أذا أراد أحدهم أخذ الطريقة عن كبير من كبراء هذه الطائفة؛ اجتمع من أهلها مَنْ تَيَسَّرَ جمعه، وتقَّدم ذلك الكبير فَيُلْبِسُ ذلك المريد ثيابا، ثم يجعل في كوز أو نحوه ماءً، ويخلط به بعض ملح، ويقوم كلَ منهم فيشرب من ذلك الماء وينسبه إلى كبيره، وربما اعتنى بذلك بعض الملوك، وقد جرت العادة في ذلك أنه إذا ألبس السلطانُ واحدًا من الأمراء أن يكتب له بذلك توقيعًا"[٣].

ولم أَسْتَطِعْ تحديد اسم الشخص الذي كُتِبَ له هذا التوقيع لأن أبا العباس القلقشندي قد تصرَفَ في النص فحذف منه اسم المكتوب له، ووضع مكانه كلمة فلان فجاء النص هكذا: "ولما كان فلان ذو المفاخر، والمآثر، أمير الفتيان، مميَّزُ الإخوان والأعيان، هو صاحب هذا المحفل المعقود، والممدوح بهذا المقال المحمود،...، اقتضى حسن الرأي الشريف- كرّم الله أنصاره، وأعلى مناره- أن نجيب وسائل من وقف في هذا القصد وقفة سائل"[٤].

ولا استطيع تحديد تاريخ كتابة هذا التوقيع بدقة، لكنني أستطيع أن أقول: إن هذا التوقيع مما كتبه القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر في عهد

---

(١) صبح الأعشى١٢/٢٧٤-٢٧٦.

(٢) السابق نفسه ص٢٦٥.

(٣) السابق نفسه ص٢٧٤.

(٤) صبح الأعشى ١٢/٢٧٥.

الظاهر بيبرس؛ لأن القاضي محيي الدين تحدث في ثناياه على لسان طالب التوقيع بالفتوة فقال: "أسأل الله، وأسأل سلطان الأرض، ملك البسيطة، إمام العصر، رافع لواء النّصر، ناصر الملّة المحمديّة، محيي الدّولة العبّاسيّة، ...، أن ينظمني في سلك عقود الفتوة"[١]، ومعروف أن الظاهر بيبرس هو الذي أحيا الخلافة العباسية من جديد حين عقد مجلسًا حضر فيه جماعة من الأكابر، منهم الشيخ عزالدين بن عبدالسلام إمام الشافعية في زمانه، والقاضي تاج الدين بن بنت الأعز قاضي القضاة بالديار المصرية يومئذ بمفرده، وذلك لإثبات نسب المستنصر بالله أبي القاسم أحمد ومبايعته بالخلافة ليكون أول خلفاء بني العباس بالديار المصرية[٢]، ومعروف – أيضًا – أن الظاهر بيبرس هو الذي بعث بعد وفاة المستنصر بالله هذا رسولاً إلى بغداد ليأتي بالحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن الحسين إلى القاهرة. يقول القلقشندي: "فقدم مصر في سنة تسع وخمسين وستمائة، وهو ابن خمس عشرة سنة، ثم جلس السلطان في التاريخ المذكور مجلسًا عامًا، وأثبت نسبه، وبايعه بالخلافة، وأشركه معه في الدعاء له على المنابر مقدَّمًا في ذلك على السلطان"[٣].

٣٠- نسخة توقيع برئاسة اليهود بالديار المصرية، أوردها القلقشندي في صبح الأعشى[٤]، ويُعَدُّ هذا التوقيع وأمثاله من الضرب السادس من ضروب النوع الأول مما يُكْتَبُ لولايات وظائف الديار المصرية، وهو الخاص بما يُكْتَبُ لزعماء أهل الذمة حسب تصنيف القلقشندي لأنواع المكاتبات وضروبها، وتكمن قيمة هذا التوقيع فيما يدل عليه من أن

---

(١) السابق نفسه ص٢٧٦.

(٢) مآثر الإناقة في معالم الخلافة ١١١/٢- ١١٢.

(٣) السابق نفسه ص١١٧، ص١١٨.

(٤) صبح الأعشي ٣٨٥/١١- ٣٨٨.

الدولة المصرية كانت تحتضن مواطنيها من أبناء الرسالات السماوية الثلاثة، وتشملهم برعايتها، وتحوطهم بعنايتها، وتقيم القسط بينهم دون تفرقة بين المسلمين وغير المسلمين، يقول القاضي محيي الدين: " فإن معدلة هذه الدولة تكتنف الملل والنحل بالاحتياط، وتعمهم من إنصافها بأوفر الأنصباء وأوفى الأقساط، وتلمهم من حادث الزمن إذا اشتط ومن صرفه إذا شاط، وتضمهم كما ضمت البنوة إلى جناح النبوة الأسباط، لا تزال ترقب الإل والذمة في المسلمين وأهل الذمة، وتَقْضي لهم بحسن الخيرة ورعاية الحرمة"[١].

ولا استطيع تحديد اسم الرئيس الذي كُتِبَ له هذا التوقيع؛ لأن القلقشندي قام بحذفه من النص، ووضع مكانه لفظة فلان فجاء كلام القاضي محيي الدين هكذا: "ولما كان فلان هو لمحاسن هذا التقريظ بهجة، ولجسد هذا التفويض مهجة ... اقتضى حسن الرأي الشريف أن يُمَيَّزَ على أبناء جنسه حق التمييز، وأن يجاز له من التنويه والتنويل أجل ما حيز، ورسم بالأمر الشريف – لا زال يختار فَيُجْمِلُ الاختيار، ويغدو كالغيث الذي يعم بنفعه الربا والوهاد والأثمار والاشجار – أن تُفَوَّضَ إليه رئاسةُ اليهود على اختلافهم من الربانيين[٢]، والقرائين[٣]، والسامرة[١] بالديار المصرية حماها الله وكلأها"[٢].

---

(١) صبح الأعشى ١١/٣٨٦.

(٢) الرَّبَّانِيُّون: طائفة من اليهود ينفردون "بشروح لفرائض التوراة وضعها أحبارهم، وتفريعات على التوراة ينقلونها عن موسى ט" صبح الأعشى ١٣/٢٥٧، ويذهبون إلى تأويل ما وقع في التوراة "منسوبًا إلى الله تعالى من ذكر الصورة والتَّكَلُّم، والاستواء على العرش، والنزول على طور سيناء" صبح الأعشى ١٣/٢٥٧.

(٣) القرَّاءُون: طائفة من اليهود "يقفون مع ظواهر نصوص التوراة "فيحملون ما وقع فيها "منسوبًا إلى الله تعالى من ذكر الصورة والتَّكَلُّم، والاستواء على العرش، والنزول على طور سيناء، ونحو ذلك على ظواهره، ...، ويَنْجَرُّون من ذلك إلى القول بالتشبيه، والقول بالجهة" صبح الأعشى ١٣/٢٥٧

ولا أستطيع – أيضًا – تحديد تاريخ كتابة هذا التوقيع لأنه لم ترد في النص أية إشارة تهديني إلى تحديده.

٣١- نسخة كتاب بالبشرى بوفاء النيل قال الصفدي إن القاضي محيي الدين كتب به لنائب السلطنة بحلب المحروسة، ولم أستطيع معرفة اسم هذا النائب، ولم أستطع الوصول إلى تاريخ كتابة البشرى، وقد احتفظ بنصها الصفدي في الوافي بالوفيات، والسيوطي في حسن المحاضرة[٣].

كانت هذه الرسائل هي كل ما استطعت حصره من تراث الترسل الديواني الخاص بالقاضي محيى الدين بن عبدالظاهر.

---

(١) السامرة: قال القلقشندي: "وهم أتباع السامري الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله في سورة الأعراف: (وأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)، ... وقد اخْتُلِفَ فيهم هل هم من اليهود أم لا؟، والقراءون والربانيون ينكرون كون السامرة من اليهود، ...، وللسامرة توراة تختصهم غير التوراة التي بيد القرائين والربانيين، والتوراة التي بيد النصارى، وهم ينفردون عن القرائين والربانيين بإنكار نبوة مَنْ بعد موسى ما عدا هارون ويوشع عليهما السلام، ويخالفونهم أيضا في استقبال صخرة بيت المقدس، ويستقبلون طور نابلس، ويوجهون إليه موتاهم زاعمين أنه الذي كلم الله تعالى موسى عليه، ويزعمون أن الله تعالى أمر داود عليه السلام ببناء بيت المقدس عليه فخالف وبناه بالقدس، ويوافقون القرائين في الوقوف على ظواهر نصوص التوراة، ويمنعون القول بالتأويل الذاهب إليه الربانيون من اليهود، ويقولون: لا مِسَاس". صبح الأعشى ١٣/٢٦٨- ٢٦٩ بتصرف.

(٢) صبح الأعشى ١١/٣٨٦- ٣٨٧.

(٣) الوافي بالوفيات ١٧/٢٧٦- ٢٧٩، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، لجلال الدين السيوطي، مصدر سابق، ٢/٣١١- ٣١٣.

المبحث الثاني:

نصوص هذه الرسائل: قراءة موضوعية

لقد اتضح لي من خلال قراءة هاتيك النصوص الديوانية ما يلي:

١- أن صاحبنا قد كتب عن أربعة من سلاطين مصر وحكامها الكبار في عصر دولة المماليك البحرية، وهم: المظفر قطز، والظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، وأنه قد كتب عن هؤلاء الملوك والسلاطين إلى كلٍّ من:-

(أ) ملوك الشرق من المسلمين، وغير المسلمين، وذلك كما في الرسالة الأولى التي كتبها عن المظفر قطز إلى صاحب اليمن يوسف بن عمر بن علي بن رسول، والرسالة السابعة التي كتبها عن الظاهر بيبرس إلى ملك الفرنج المستولى على طرابلس.

(ب) ملوك الغرب من المسلمين، وغير المسلمين، وذلك كما في الرسالة التاسعة التي كتبها عن الظاهر بيبرس إلى متملك قبرص، والرسالة العاشرة التي كتبها صاحب تونس المستنصر بالله أبي عبدالله محمد بن أبي زكريا يحيي بن عبدالواحد.

(ج) بعض الوزراء من أرباب الأقلام بالديار المصرية والشامية، وذلك كما في الرسالة الثالثة التي كتبها عندما تولَّى القاضي تاج الدين بن بنت الأعز قضاء القضاة بالديار المصرية، ونظر أموال اليتامى والأوقاف،

وكما في الرسالة الحادية عشرة التي كتبها عندما تولَّى التدريسَ بالمدرسة الصلاحية القاضي تقي الدين عبدالرحمن بن القاضي تاج الدين بن بنت الأعز.

(د) بعض الوزراء من أرباب السيوف بالديار المصرية والشامية، كما في الرسالة التاسعة عشرة التي كتب بها للأمير ركن الدين بيبرس الدواداري عندما أنعم عليه المنصور قلاوون بخمسة عشر طوشيًّا.

(هـ) ولاة العهود، وذلك كما في الرسالة الرابعة التي كتب بها عن الظاهر بيبرس إلى وليِّ عهده الملك السعيد محمد بركة خان، وكما في الرسالتين: الخامسة عشرة التي كتب بها عن المنصور قلاوون لولي عهده الملك الصالح علاء الدين علي، والحادية والعشرين التي كتب بها عن المنصور قلاوون – أيضًا – لوليّ عهده الملك الأشرف صلاح الدين خليل.

٢– وبإعادة قراءة هذه القائمة مرة أخرى يتضح لنا أن قلم القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر كان يترجم دائمًا عما يتردد في حنايا صدور سلاطين المماليك وأفئدتهم في أفراحهم وأتراحهم، وفي جدهم وعبثهم، وفي سفرهم وإقامتهم.

نجد هذا التعبير عن أفراحهم فيما وصف به كاتبُنا الظاهِر بَيبرس وهو يلهو ويلعب بالرمح مع كبار الأمراء والوزراء من أرباب السيوف في احتفالهم بزفاف نجله الملك السعيد محمد بركة على ابنة سيف الدين قلاوون الألفي، يقول محيي الدين: "وصار الطعن في هذا الميدان أكثر من الطعن في الحرب، ولم يعدم في هذه الأيام من أيام المعارك غير سفك الدماء والضرب، والسلطان بين تلك الصفوف لا يخاف دركًا ولا يخشى[1]، ولا

---

(١) الكاتب هاهنا يقتبس من قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي

مكيدة تُعْمَلُ أو تُنْشَا، ولعبوا وكأنهم زهر الربيع ألوانًا مختلفة، وزُهْرُ النجوم أنوارًا مؤتلفة"[١].

ونجده – أيضًا – فيما وصف به الملك السعيد وهو يلهو ويلعب مع ولده في هذا الاحتفال، يقول محيي الدين: "وشاهد الناس من هذا السلطان وولده الملك السعيد الأسد وشبله، والسَّهْمَ ونَصْله، والرُّمْحَ وسنانه، والكَفَّ وبنانَه، والطرف وإنسانه، واستبشرت بالملك السعيد الأمم، وجرى بسعادته القلم"[٢].

وتجد هذا التعبير عن أحزانهم في الرسالة الخاصة بجواب تعزية صاحب اليمن في وفاة الصالح عليّ، نجل السلطان المنصور قلاوون، ففي هذه الرسالة يتحدث القاضي محيي الدين عن وليّ العهد المتوفى على لسان والده السلطان الثاكل قائلاً: "الولد الذاهب مَرَّ[٣] في رضوان الله تعالى سالكا طريقا لا عوج فيها ولا أمتا[٤]، وانتقل سارًّا بارًّا صالحا وما هكذا كل الموتى نعيا ولا نعتا؛ وإن[٥] كان الولد عمل أبيه – وقد رفع الله روح ولدنا في أعلى عِلِّيِّين تحقق أنه العمل الصالح[٦]، والعمل الصالح يرفعه"[١].

فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي البَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا ولا تَخْشَى)[سورة طة: الآية٧٧].

(١) الروض الزاهر ي سيرة الملك الظاهر، ص٤٥١، ص٤٥٢ .

(٢) الروض الزاهر في سيرة الملك الناصر، مصدر سابق، ص٤٥١.

(٣) في صبح الأعشى: الولد الذاهب في رضوان الله تعالى سالكًا ....

(٤) الكاتب هاهنا يقتبس من الآية السابعة بعد المائة من سورة طه وهي قوله تعالى: (لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا ولا أَمْتًا).

(٥) في صبح الأعشى: وإذا كان الولد ...

(٦) في صبح الأعشى: تحقَّق أنه العمل الصالح يرفعه، والكاتب هاهنا يقتبس جزءًا من الآية العاشرة من سورة فاطر وهي قوله تعالى: (مَن كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ والَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ

وتجد التعبير عن جِدِّهم فيما أوصوا به أبناءهم الذين تَقَلَّدوا ولاية العهد، يقول القاضي محيي الدين من تقليد كتب به عن المنصور قلاوون للأشرف خليل: "وأما الوصايا فأنت يا ولدنا الملك الأشرف – أعزك الله – بها الدَّرِبُ، ولسماع شدوها وحدوها الطَّرِب ، الذي للغو لا يضطرب ؛ فعليك بتقوى الله فإنها ملاك سدادك ، وهلاك أضدادك؛ وبها يراش جناح نجاحك، فاجعلها دفين جوانح تأملك ووعيك، ونصب عيني أمرك ونهيك، والشرع الشريف فهو قانون الحق المتبع، وناموس الأمر المستمع؛ وعليه مدار إيعاء كل إيعاز، .....، فلا تخرج في كل حال عن لوازمه وشروطه، ولا تنكب عن مُعَلَّقِهِ ومنوطه، والعدل فهو مثمر غروس الأموال، ومعمر بيوت الرجاء والرجال، وبه تزكو الأعمار والأعمال، فاجعله جامع أطراف مراسمك، وأفضل أيام مواسمك، .....، والثغور فهي للممالك مباسمها فاجعل نواجذها تفتر عن أحسن ثنايا الصون، ومراشفها شنبة الشفاه بحسن العون[٢].

وتجد تعبيره عن خروجهم لِلتَّنَزُّهِ في تلك الرسالة الصَّيديَّة التي كتب بها على لسان الظاهر بيبرس إلى الأمير عزالدين الحِلِّي نائب السلطنة بالقلعة، ففي هذه الرسالة يتحدث القاضي محيي الدين على لسان السلطان واصفًا خروجه للصيد، وقفوله منه، وما أصاب في رحلته من نُجْح، وما حمل معه إلى القاهرة من صيد، يقول: "خرجنا إلى الصيد المبارك بجنود تملأُ السَّهْلَ والجبل، وتستحي الشمسُ منها فتسْتَتِرُ في سحابها من كثرة الخجل، تسير على الأرض منها جبال، وتأوي الرمالُ منها إلى أورفِ ظلال؛ وتوجَّهْنَا إلى جهة الطُّرَّانة[٣] وإذا بحشود الوحوش قد توافدَتْ، وعلى مناهل

عَذَابٌ شَدِيدٌ ومَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ)

(١) نهاية الأرب ١٠٨/٨، ١٠٩، وصبح الأعشى ٣٥٨/٧ – ٣٥٩.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، مرجع سابق، ١١٨/٨– ١١٩.

(٣) الطّرَّانة: قرية تقع على الشمال الغربي لمدينة منوف، تتبع الآن مركز السادات

المناهج قد تواردَتْ، والأجلُ يسوقهم، والبيدُ تَعُقُّهُم، والمنايا تعوقهم؛ ولم تَزَلْ أيدي الخيل تجمعهم في صعيد، وتطوى بهم سطورًا في طروس البيد؛ حتى أحاطتْ بهم إحاطة الفَلَك بالنجوم الزواهر، والأجفان بالعيون النواظر، وجُرِّدَت السيوفُ فَظَنَّتْهَا غُدُرا، ورُمِيتَ النِبالُ فحسبتها شررا، وعُزِّزَت الرماحُ بالسهام، وحَّيْتَها السِّلامُ[1] بالسَّلام، فَسَكَنَتْ نهارا من العجاج في ظلام؛ وضاقتْ عليها الأرضُ بما رَحُبَت[2]، وأدركت المنيَّةُ منها ما طَلَبَتْ،...، ولم تَسْلَمْ في هذا اليوم غير غُزالةِ السماء فإنها استترتْ بالغيوم، وخافت أن يكون الهلال قد نصب فَخًّا لصيدها وصيد غيرها من النجوم،...، وَثَنَيَا الأعنة وَالشفار قد أُنْهِلَتْ، والظهور قد أُثْقِلَتْ، والكُنُسُ خاويةُ على عروشها[3]، والبيدُ

بمحافظة المنوفية.

(١) شرحها مصحح السفر الثامن من أسفار نهاية الأرب التي طبعتها في ثلاثينيات القرن المنصرم دار الكتب المصرية، الأستاذ أحمد الزين فقال رحمه الله: السِّلام: الحجارة، واحده سِلمة بكسر اللام"، ينظر: نهاية الأرب، للنويري، ١٠٦/٨، هامش رقم ٢.

(٢) الكاتب هاهنا يستخدم تعبيرًا قرآنيًا ورد مرتين في سورة واحدة من سور القرآن الكريم، وهي سورة التوبة، في قوله تعالى في الآية الخامسة والعشرين: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ويَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ)، وقوله جلَّ شأنه في الآية الثامنة عشرة بعد المائة من السورة نفسها: (وعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ). ويراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم لمحمد فؤاد عبدالباقي، طبعة دار الشعب، ص٣٠٤.

(٣) خاوية على عروشها: هذا تعبير قرآني خالص تردَّد ثلاث مرات في آي الكتاب العزيز، الأولى في مفتتح الآية التاسعة والخمسين بعد المائتين من آي سورة البقرة، وهو قوله تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا

قد أوحشتْ من وحوشها؛ وما نشتمل عليه من محبة المجلس وإيثاره، ونَجِدُهُ من الوحشة له مع دُنُوّ دارِه؛ وسرورُهُ بما عساه لنا يتجَّدد، وخبورُهُ بما يَرِدُ مِنْ جهتنا وهذا لا نشكُّ فيه ولا نتردد؛ أوجب أَنْ نبعث إليه منه قسما، ولم نَنْسَ عند ذِكْرَنَا أنفسَنَا له اسْما"[1].

وتجد تعبير القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر عن رحلات هؤلاء السلاطين وأسفارهم فيما كتب به إلى الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا "ومررنا على مدينة دلوك وهي رسوم سكانها، ضاحكة عن تبسم أزهارها وقهقهة غدرانها، ذات بروج مشيدة[2]، وأركان موطدة، ونيران تزاويق موقدة، في عمد من كنائسها مُمَدَّدة[3]؛ وسرنا منها إلى مرج الديباج نتعادى، وذلك في ليلة ذات أندية وإن لم تكن من جمادى، ظلماتها مدلهمة، وطرقاتها قد أصبح أمرها علينا غمة[4]، لا يثبت تربها تحت قدم المار، وكأنما سالكها

قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ...)، {سورة البقرة: الآية٢٥٩}، والثانية في قوله تعالى: (وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ويَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا){سورة الكهف: الآية٤٢}، والثالثة في قوله تعالى: (فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ){سورة الحج: الآية٤٥}. ويراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص٤٥٧.

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب لشهاب الدين النويري، ٨/١٠٥- ١٠٦.

(٢) هذا اقتباس من قول الله تعالى: (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ ولَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ){سورة النساء، أول الآية رقم٧٨}.

(٣) الكاتب هاهنا متأثر بقوله تعالى: (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ* فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) {سورة الهمزة: الآيتان ٨،٩}.

(٤) يقتبس الكاتب هاهنا جزءًا من آخر الآية الحادية والسبعين من سورة يونس، وهو قوله تعالى: (فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا

يمشي على شفا جُرُف هار[١]، فبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدتها ليلة الملسوع، وتتمنى العين بها هجمة هجوع؛ وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفي الرفيق عن رفيقه، وتشغله عن اقتفاء طريقه، ينبري منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه، كما يخرج السهم بقوةٍ من منجنيقه؛ حولها معاثر أحجار كأنها قبوٌر بُعْثِرَتْ[٢]، أو جبال تفطرت، بينها مخائض، لا بل مغائض، كأنها بحارٌ فُجِّرَتْ[٣]، ما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول[٤] وتَعَمَّمَتْ بالثلوج، وعَمِيَتْ مسالِكُها فلا أحد إلا وهو قائل: فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج[٥]، تضيق مناهجها[٦] بمشي الواحد، وتلتف شجراتها التفاف الأكمام على الساعد؛ ذات أوعار زلقة، وصدور شرقة، وأودية بالمزدحمين مختنقة، بينما يقول منتحيها: قد نلت السماء بسلم من هذه الشواهق[٧]، إذا هو متضائل قد هبط في مأزق

إلَيَّ ولا تُنظِرُونِ) .

(١) يقتبس الكاتب هاهنا من قوله تعالى: (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ ورِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ واللَّهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ) {سورة النساء: الآية ١٠٩}.

(٢) تشبيه الكاتب للأحجار المتناثرة بالقبور المبعثرة مأخوذ من قوله تعالى: (وإذَا القُبُورُ بُعْثِرَتْ) {سورة الأنفطار، آية ٤}.

(٣) تشبيه الكاتب للطرق المبتلَّة بالبحار المفجَّرة مأخوذ من قوله تعالى: (وإذَا البِحَارُ فُجِّرَتْ)}سورة الانفطار، آية ٣}.

(٤) تمنطقت بالجداول: التفت بها.

(٥) الكاتب هاهنا يقتبس من قوله تعالى: (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)}سورة غافر، آية١١}.

(٦) مناهجها: طُرُقُها، وحاراتها، وأزقَّتُها.

(٧) الكاتب هاهنا متأثر بقول زهير بن أبي سُلْمَى المزَنيّ في المعلقة:

وَمَنْ هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ∴ ولونال أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ

متضايق؛ لم تزل هذه الجبال تأخذنا وترمينا، وتلك المسارب تضمنا وتلك المشارب تُظْمِينا[1]

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضَ أَوْجُهِنَا ∴ وإلا تُسَوِّد بيضَ الغُدْرِ واللِّمَمِ[2]

وكان حالُهُمَا في الحكم واحدةً ∴ لو احتكْمنَا من الدنيا إلى حَكَمِ

ونتركُ الماءَ لا ينفكَّ فيَ سَفَرٍ ∴ ما سار في الغيمِ منه سار في الأَدَمِ"[3]

بهذا البيان الآسر، والتصوير البديع، والاقتباسات المدهشة بكثرتها وتَنَوُّع مادتها يصف القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر تلك الرحلة التي رافق فيها السلطان الظاهر بيبرس إلى بلاد الشام لرد عادية الصليبيين عام

يراجع: شرح ديوان زهير بن أبي سُلَمَى، صنعة أبي العباس أحمد بن يحيي ثعلب، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م، ص٣٠.

(١) الكاتب هاهنا ينظر إلى قول ابن زيدون في ولاّدة بنت المستكفى من القصيدة النونية:

أما هواكِ فلم نَعْدِل بِمَنْهَلِهِ شِرْبًا ∴ وإنْ كان يروينا فَيُظْمِينَا

ينظر: ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبدالعظيم، طبع نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ص١٤٧، القاهرة ١٩٨٠م.

(٢) الأبيات الثلاثة من قصيدة أبي الطيب المتنبي التي مطلعها:

حَتَّامَ نحن نُسَارِى النَّجْمَ في الظُّلَمِ ∴ وما سُرَاهُ على ساقٍ ولا قَدَمٍ

ينظر: ديوان المتنبي، تحقيق وتعليق د. عبدالوهاب عزام، طبعة الذخائر، العدد الأول، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٥١١.

(٣) صبح الأعشى ١٤/١٤٢- ١٤٣.

٦٦٣هـ، فلقد وصف مدينة دلوك كما سبق أن ذكرنا، ووصف كينوك وقال: إنها هي الحدث الحمراء التي وردت في شعر أبي الطيب المتنبي[١]، ووصف أقجادربند[٢]، ووصف قرية رَيَّان[٣]، وذكر أنها تجاور الكهف الذي آوى إليه الفتية الذين وردت قصتهم في القرآن العظيم، وحكى أنه رأى الرَّقيم الذي دُوِّنَت فيه أسماؤهم بالروميّة، ووصف قرية أوتراك[٤]، وخان قرطاي[٥]، وبلدة قيسارية[٦]، وصف كل هاتيك البلاد وصفًا دقيقًا يتناول أسوارها، وقلاعها، وحصونها، وبيوتها، وشوارعها، وأنهارها، وجبالها، وسماواتها في الصحو والغيم، ووصف بَرْدَهَا وبَرَدَهَا، ووصف ما جرى بين الظاهر بيبرس وأعدائه من وقائع وحروب واقتتال، وكتب هذا كله قضاءً لحقِّ العبودية للوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا "لأن العبيد شأنهم إتحاف مواليهم بما يشاهدونه في سفراتهم من عجائب؛ ليقضوا بذلك حقوق الاسترقاق، وتكون نِعَمُ ساداتهم قد أحسنت لأفواههم الاستنطاق، ويتعرضوا لما عساه يَعِنُّ من مراحمهم"[٧].

٣- وبهذا الذي ذكرتُ من تعبير القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر عن مشاعر السلاطين ومن دار في فلكهم من أمراء المماليك، ووزراء الدولة ووجهائها في أفراحهم وأحزانهم، وفي جِدِّهم ولهوهم، وفي حِلِّهم وارتحالهم؛ بهذا كلِّه يتبين لنا أن النخبة المثقفة من أبناء

---

(١) صبح الأعشى١٤/١٤٣.

(٢) السابق نفسه ص١٤٤

(٣) السابق نفسه ص١٥٠ .

(٤) السابق نفسه، ص١٥١.

(٥) السابق نفسه، ص١٥٢.

(٦) السابق نفسه، ص ١٥٤.

(٧) السابق نفسه، ص١٣٩.

الشعب المصري من طبقة كتاب الديوان قد كانوا بمعزل تام عما يعانيه الناس من أصفاد الفقر والقهر، وأغلال الإتاوات والمكوس، وضروب الأمراض والأوبئة: الطبيَّة منها والاجتماعية كالطاعون، والشذوذ الجنسي، والحشيشة التي كانت تسمى بخمر الفقراء، وتولّى الوظائف بصفة عامة، والوظائف الدينية بصفة خاصة بالبذل والبرطلة(١).

لقد أتاح الثراء الفاحش، والعيش الرغيد الذي كانت ترفل فيه طبقة كُتَّاب الديوان؛ أتاح لهم أن يكونوا بمنأى عن هذه الطوامّ الاجتماعية، والأزمات الاقتصادية، والاضطرابات النفسية، والإنحلال الخلقي.

وللقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر قطعة نثرية أظن أنها جزء من تقليد أو منشور كتب به عن السلطان الظاهر بيبرس إلى نائبي السلطنة بمصر والشام لاتخاذ الإجراءات اللازمة لإبطال الحشيشة، ومعاقبة بائعيها وشاربيها واستتابتهم.

ولعلّ تاريخ هذه القطعة النثرية يعود إلى عام خمسة وستين وستمائة، وبالتحديد إلى النصف من شهر شعبان من هذا العام؛ لأن ابن إياس يقول: "في حوادث هذه السنة في النصف من شهر شعبان أمر السلطان بإبطال ضمان الحشيشة وإحراقها، وأخرب بيوت المسكرات، وكسر

---

(١) ينظر: معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكي، تحقيق محمد علي النجار وزميليه، الطبعة الثانية، مطبعة الخانجي، القاهرة ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م، الصفحات ٤٠، ١٢٥، ١٤٧، وما بعدها، وإغاثة الأمة بكشف الغمة لتقي الدين المقريزي، كتاب الهلال، العدد ٤٧٢، القاهرة، إبريل ١٩٩٠م، تقديم د. سعيد عاشور، ص٨١، ٨٤، ٨٦، ١٢٠ وما بعدها وذلك على سبيل المثال، والمجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، طبعة دار المعارف، للدكتور فوزي أمين، ص٣٣٢ وما بعدها إلى ص٣٦٩ طبعة عام ١٩٨٢م.

ما فيها من الخمور وأراقها، ومنع الحانات من الخواطي، واستتوب العلوق واللواطي، وعمَّ هذا سائر جهات الديار المصرية، وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات بالبلاد الشامية، فطهُرَتْ في أيامه سائر البقاع، وامتنع الناس من ذلك غاية الامتناع"[1].

وفي هذه القطعة النثرية يذكر القاضي محيي الدين أن تحريم الخمر، ومنع شربها، وتأديب المخالفين عن أمر السلطان في ذلك قد صرف الناس عنها إلى شرب الحشيشة التي وجدوا فيها البديل والعِوَض، ويشير إلى أنهم – لرخص ثمنها – قد أقبلوا عليها إقبالاً شديدًا، حيث كانوا يتعاطونها في بيوتهم وحوانيتهم، ووصل بهم الانحطاط والسفول إلى عدم التورع عن شربها في مساجدهم وجوامعهم، وكان سبيله في الحديث عن هذا كله هو التصوير المتأنق، والوصف المُوَشَّى بحلية البديع، استمع إليه وهو يتحدث عن ابنة أم الخبائث، وعن شاربيها، وعن آثارها السيئة على وجوههم وأجسامهم فيقول: "إن أم الخبائث ما عَقَمَتْ، وإن الجماعة التي كانت ترضع ثدي الكاس عن ثديها ما فُطِمَتْ، وإنها في النشوة ما خَيَّبَ إبليسُ مسعاها، وأنه لما أخرج المنع عنها ماء الخمر أخرج لها من الحشيش مرعاها[2]، وأنها استراحت من الخمَّار، واستغنت بما تشتريه بدرهم عما كانت تبتاعه من الخمر بدينار، وأن ذلك فشا في كثير من الناس، وعُرِفَ في عيونهم ما

---

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، الجزء الأول، ص٣٢٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٢هـ– ١٩٨٢م.

(٢) الكاتب هاهنا يقتبس من قول الله تعالى: (والأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا ومَرْعَاهَا){سورة النازعات: الآيتان ٣٠، ٣١}.

يُعْرَفُ من الاحمرار في الكاس، وساروا كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ سُكْرَا[١]، وإذا مشوا يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى"[٢].

واستمع إليه وهو يذكر الأمر السلطاني بإبطالها يقول: "ونحن نأمر بأن تُجْتَثَّ أصولُها وتُقْتَلع، ويُؤَدَّبَ غارسُها حتى يَحْصُدَ الندامة مَّما زرع، وتُطَّهَر منها المساجد والجوامع، ويُشَهَّرَ مستعمِلُها في المحافِلِ والمجامع، حتى تَنْتَبِهَ العيونُ من هذا الوسَنَ، وحتى لا تُشْتَهَي بعدها خضراءُ ولا خضراءُ الدِّمَن"[٣].

ومما يؤسف له أن نسخة هذا التقليد، أو المنشور، أو المرسوم قد ضاعت مع ما ضاع من ترسل القاضي محيي الدين وغيره من ذخائر التراث، واحتفظ بهذا الجزء الذي عرضناه منها ابن حجة الحموي في ثمرات الأوراق[٤]، والغزولي في مطالع البدور[٥].

---

(١) الكاتب هاهنا يقتبس من قوله تعالى: (كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ)[سورة المنافقون: الآية ٤]

(٢) ثمرات الأوراق، لابن حجة الحموي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٣٢٦، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

(٣) القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر يقتبس هنا تعبيرًا نبويًّا شريفًا ورد في حديث أبي سعيد الخدري τ ، وهو قوله ρ : "إياكم وخضراء الدمن، قيل: وما خضراءُ الدِّمَن؟، قال: المرأة الحسناء في منبت السواء"، وهو الحديث الرابع والثمانون من أحاديث كتاب أمثال الحديث للقاضي أبي محمد الحسن بن عبدالرحمن بن خَلاَّد الرَّامَهُرْمُزِيّ المتوفى (٣٦٠هـ). ينظر الكتاب المذكور بتحقيق الدكتور عبدالعلي عبدالحميد الأعظمي، نشر الدار السلفية بالهند، ص١٨٨، الطبعة الأولى محرم ١٤٠٤هـ - أكتوبر ١٩٨٣م.

(٤) ثمرات الأوراق، لابن حجة الحموي، مصدر سابق، ص٣٢٦.

(٥) مطالع البدور في منازل السرور، لعلاء الدين الغزولي، ٤٤٥/٢، نشرة مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة، ١٤١٩هـ- ٢٠٠٠م.

المبحث الثالث

الاقتباس من القرآن الكريم في نصوص هذه الرسائل

يشيع في ترسُّل القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر بصفة عامة، وفي ترسُّلِهِ الديواني بصفة خاصة الاقتباس من القرآن الكريم.

وقد لاحظْتُ أنه لا يقتبس من جزء بعينه من أجزاء القرآن العظيم، ولا من سورة بعينها من سوره، ولا من مجموعة آيات بعينها من آياته، ولكنه كان يسيح داخل الرسالة الواحدة من رسائله في آي الكتاب العزيز كله ويرتحل جيئة وذهوبا ليأخذ من ألفاظه، أو ليمتح من عباراته، أو ليقتبس من معانيه فيما يكتب؛ يدل على هذا الذي أزعم ما سبق أن أشرتُ إليه في

المبحث الأول من مباحث هذه الدراسة مما تبقى له من نصوص، وحسبك أن تقرأ – على سبيل المثال– رسالته التي كتبها على لسان المنصور قلاوون لولده الأشرف خليل بولاية العهد، أو التقليد الذي كتبه لتاج الدين بن بنت الأعز بقضاء القضاة بالديار المصرية، أو التوقيع الذي كتبه لتقي الدين عبدالرحمن بن عبدالوهاب بتدريس المدرسة الصلاحية، أقول: حسبك أن تقرأ نصًّا واحدًا من هذه النصوص لتقف بنفسك على هذه الظاهرة، ولتمتلىء إعجابًا ببراعته في التمهيد للاقتباس قبل إدراجه في ثنايا كلامه، ولتنتشى إحساسًا بتوهُّجِ المقتبس القرآني وبإيحاءاته التي خلعها على النص.

١– ففي الجزء الخاص بالحمدلة من خطبة التقليد الذي كتبه عن المنصور قلاوون بولاية العهد للأشرف خليل يقول القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر: "نحمده على أن جعل سلطاننا ثابت الأركان، نابت الأغصان، كل روضة من رياضه ذات أفنان، لا تزعزعه ريح عقيم، ولا يخرجه رزء عظيم عن الرضا والتسليم"(١).

ففي هذه الفقرة يتحدث الكاتب بلسان السلطان حامدًا المولى Y على ما آتاه من الملك الراسخ، وعلى ما وهبه من الذرية المباركة، وعلى ما رزقه من قوة الإيمان التي تعصمه من التأثر بنوائب الدهر، وتمنحه التسليم والرضا بالقضاء والقدر.

ويبدو جليًّا تأثر الكاتب بأسلوب القرآن الكريم في هذا الحديث، لأن السلطان فيما أجراه الكاتب على لسانه قد وصف في سياق الكلام نفْسَهُ بأنه: "نابت الأغصان، كل روضة من رياضه ذات أفنان"، وهو وصف مقتبسٌ من

---

(١) نهاية الأرب ١١٢/٨.

قوله تعالى: (**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ**)[١].

والروضة ذات الأفنان هي الروضة الواسعة التي تَفْضُلُ ما سواها بما تحتوي عليه من جنات معروشات وغير معروشات، ومن النخيل والزرع مختلفًا أكله، ومن الزيتون والرمان متشابها وغير متشابه[٢].

وفي تصوري أن القاضي محيى الدين حين أجرى على لسان المنصور قلاوون هذا الوصف القرآني كان يريد أن يشير إلى أن كل ابن من أبناء السلطان يشبه بما منح من محمود الخلال، ومكارم الشيم الروضَةَ الحافلة بأنواع الأشجار، وأصناف الأزهار، وشتى الثمار.

وحين عبر الكاتب عن تجلد السلطان، وعدم تضعضعه لأعتى النوائب قال: "لا تزعزعه ريح عقيم"، ووصف الريح بالعقم تعبير قرآني ورد مرة واحدة[٣] في آي الذكر الحكيم في قوله تعالى: (**وفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ**)[٤]، والريح العقيم هي تلك التي"لا تلقح سحابا ولا شجرا، ولا رحمة فيها ولا بركة، ولا منفعة"[٥]، وهي التي سخَّرها الله – تعالى – على قوم عاد سبع ليال، وثمانية أيام حسوما فأهلكتهم.

---

(١) سورة الرحمن الآيات ٤٦، ٤٧، ٤٨، والأفنان: جمع فَنٍّ، وفَنَنٍ، والفَنُّ: الضَّرْبُ، واللون، والفنَنَ: الغصن، أو ما تشعَّبَ منه، اللسان ٣٤٧٦/٥.

(٢) تفسير القرطبي، طبعة دار الشعب، ص٦٣٤٨.

(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبدالباقي، طبعة دار الشعب، ص٤٦٩.

(٤) سورة الذاريات، الآية ٤١.

(٥) تفسير القرطبي، طبعة دار الشعب، ص٦٢٢٠.

وأظن أن استدعاء هذا التعبير القرآني، وإدراجه في موضعه هذا من النص كانت تقف وراءه رغبة الكاتب في المبالغة في وصف ما أصاب السلطان المنصور قلاوون من البلاء بوفاة ولده، وولي عهده الصالح علي.

٢- وفي الجزء الخاص بالشهادتين، والصلاة على النبي صلى الله عليه، وآل بيته؛ في هذا الجزء من خطبة العهد يقول القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر: "ونشهد أن محمدا عبده الذي أنزل في التسلية به: " **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**"، والنبي الذي أوضح الله به المناهج، وبَيَّنَ السُّبُل، صلّى الله عليه وعلى آله ما تجاوبت المحابر والمنابر في البُكْر والأُصُل، وما بُدِّدَتْ عقودٌ ونُظِّمَتْ، ونُسِخَتْ آياتٌ وأُحْكِمَتْ، ونُقِضَتْ أمورٌ وأُبْرِمَتْ، وما عَزَمَتْ آراءٌ فتوكَّلَتْ، وتوكَّلَتْ فَعَزَمَتْ"[١].

ففي هذا النص نرى طرائق متعددة من سبل التأثر بآي الذكر الحكيم، فلقد استرعى انتباهنا أن الكاتب قد عمد إلى جزء من أول الآية الرابعة والأربعين بعد المائة من سورة آل عمران وأدرجه في ثنايا كلامه بعد التنبيه عليه، وهو عمل يدل على معرفة الكاتب الجيدة بأسباب النزول من ناحية، ويستدعي من ناحية أخرى إلى ذهن السامع أو القارئ الجزء غير المقتبس من نص الآية القرآنية الكريمة، ذلك الجزء الذي يحذر الله فيه من نكوص المرء على عقبيه إذا حَلَّ به بلاء، أو ابتلاء، ويُبَشِّر الشاكرين في الضراء خاصة بالثواب الجزيل، والأجر العميم، وهو قوله تعالى: (**أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ومَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**)[٢].

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ٨/١١٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

ويفصح هذا الاقتباس عما يرغب فيه الكاتب/ القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر من وصف سيده/ السلطان الثاكل المنصور قلاوون بالوقوف عند حدود الله، والالتزام بتعاليم الدين، والتأسي بما ورد في القرآن الكريم من مواعظ وعبر، وما وقع للنبي ρ من وقائع وأحداث.

وفي هذا الجزء من خطبة التقليد نلمح – أيضًا – تأثر الكاتب بقوله تعالى: (**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)[١]، وبقوله تعالى: (**الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**)[٢]، وبالجملة القرآنية: (**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**)، من قوله تعالى: (**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ولَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ**)[٣].

٣- ويبتدئ القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر نسخة التقليد بعد الخطبة بقوله: "وبعد، فإن من ألطاف الله بعباده، واكتناف عواطفه ببلاده[٤]؛ أنْ جعلنا كلَّما وهي للملك ركن شديدٌ شَيَّدْنَا رُكْنًا عِوَضَه، وكلما اعترضتْ للمقادير جملةُ بَدَّلْنَا آيةً مكان آيةٍ، وتناسينا تَجَلُّدًا تلك الجملة

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٢) سورة هود: الآية١.

(٣) سورة آل عمران: الآية١٥٩.

(٤) قال الشاعر العالم، الأستاذ أحمد الزين – رحمه الله – مصحح الجزء الثامن من نهاية الأرب (نشرة دار الكتب المصرية)، قال في الهامش تعليقًا على هذه العبارة: "كذا في الأصلين؛ ولم نجد فيما بين أيدينا من كتب اللغة تعدية اكتنف بالباء؛ والذي وقفنا عليه أنه يقال: اكتنفه بلا واسطة حرف؛ ولعله ضمنه معنى الإحاطة؛ فَسَوَغَ له هذا التضمين تعديته بهذا الحرف؛ أو لعله: لبلاده باللام" نهاية الأرب ١١٣/٨هامش رقم ٢.

المعترضة؛ فلم نُحْوِج اليومَ لأمْسه وإنَ كان حميدًا، ولا الغارِسَ لِغْرسِه وإن كان ثمرةٌ يانعًا وظِلُّهُ مديدًا، فأطلعْنَا في أُفُق السلطنة كوكبَ سَعْد كان لِحَسُنْ الاستخلاف مُعَدًّا، ومَنْ لقبيل المسلمين خيرُ ثوابًا وخيرٌ مردّا، ومن يُبَشِّرُ الله به الأولياءَ المتقين وينذرُ به من الأعداء قومًا لُدّا"[1].

ففي هذه الفقرة – على قصرها – تأثر الكاتب بآي الكتاب العزيز خمس مرات كانت أولاها في سياق رثاء ولي العهد المتوفى، لقد كان الصالح علي بالنسبة لأبيه، وبالنسبة لمصر ركنا شديدًا يأوي إليه السلطان، وتحتمى به الدولة المصرية؛ فلما قضى نحبه وهى هذا الركن وضعف، واحتاج السلطان بعده إلى ناصر ومعين، ومما لا ريب فيه أن وصف الصالح علي بالركن الشديد مأخوذ من قوله تعالى حكاية عن سيدنا لوط υ وهو يخاطب قومه: (**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**)[2].

وتأثر الكاتب مرة ثانية بالقرآن العظيم في هذه الفقرة عند حديثه عن حسن تصرف السلطان وثباته في النوائب والمصائب؛ فلقد رفرف الموت بجناحيه على البيت المنصوري القلاووني الألفي، واختطف ولي العهد وهو في ريعان الشباب، فلم يضعف السلطان، ولم يَهُنْ، وإنما تجاوز سريعا هذه الأزمة، وعدها بمثابة الجملة المعترضة بين الكلام، التي لا يصح الوقوف عندها طويلاً، ومضى في طريقه – بعون من الله وفضل – يُبَدِّلُ آيةً مكان آيةٍ، أي يُعَيّنُ وليًّا جديدًا للعهد خلفا لوليّ العهد الذي اغتالته يد المنية.

---

(١) نهاية الأرب ٨/١١٣.

(٢) سورة هود: الآية ٨٠.

ووصف وَلِيَّىْ العهد: القديم والجديد بأنهما آيتان رُفِعَتْ إحداهما، وحلَّت الأخرى محلَّها منظورٌ فيه إلى قوله تعالى: (**وإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)[١].

ويظهر أثر المعجم القرآني في موضع ثالث من هذه الفقرة، وذلك عند حديث الكاتب عن إيجابيات القرار السلطاني بتعيين وليٍّ جديد للعهد، إن هذا القرار يدل على أن المنصور قلاوون رجل يحتاط لقابل أيامه دائمًا حتى لا يحوج "اليوم لأمسه، وإن كان حميدًا، ولا الغارس لغرسه وإن كان ثمره يانعا وظله مديدا".

والظل المديد هو الظل الممدود، فقد جاء في لسان العرب: "وشيء مديد: أي ممدود"[٢] والظل المديد أو الممدود هو الظل الدائم الذي لا يزول[٣]، وهو تعبير مأخوذ مما ورد في القرآن الكريم من وصف ما أعد الله لأصحاب اليمين في الآخرة، قال تعالى: (**وأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصْحَابُ اليَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وطَلْحٍ مَّنضُودٍ * وظِلٍّ مَّمْدُودٍ**)[٤].

---

(١) سورة النحل: الآية١٠١.

(٢) لسان العرب، طبعة دار المعارف، ٤١٥٧/٦.

(٣) تفسير القرطبي، طبعة دار الشعب، ص٦٣٧٩.

(٤) سورة الواقعة، الآيات ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠. وقد كُنْتُ أظن أن قول القاضي محيى الدين: "وإن كان ثمره يانعا" كُنْتُ أَظُنُّهُ مأخوذا من قوله تعالى: (انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ويَنْعِهِ)، ولكنني وجدته من التعبيرات الشائعة في الشعر العربي كما في قول الشاعر:

لقد أمرتني أمُّ أوفي سفاهة ∴ لِأَهْجُرَ هَجْرًا حين أَرْطَبَ يانِعهُ

ينظر: لسان العرب، مصدر سابق، مادة ينع، ٤٩٧١/٦.

وفي نهاية الفقرة يذكر الكاتب أن السلطان قد اختار لولاية العهد مَنْ هو "لقبيل المسلمين خيرٌ ثوابًا وخيرٌ مَرَدّا، ومَنْ يُبَشِّرُ الله به الأولياء المتقين ويُنْذِرُ به من الأعداء قومًا لُدًّا".

ويغلب على ظني أن القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر يريد أن يقول هاهنا: إن المنصور قلاوون قد اختار لولاية العهد الشخص المناسب الذي تتحقق بولايته المنفعة للمسلمين في دنياهم كتحقق منفعتهم بأعمالهم الصالحة في أخراهم، والذي هو لأعداء الدولة المملوكية المتربصين بها والناقمين منها نذيرُ شؤم، وداعيةُ نكال.

وقد أخذ الكاتب قوله: "لقبيل المسلمين خيرٌ ثوابًا وخيرٌ مَرَدّا" من ختام قوله تعالى: (**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى والْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وخَيْرٌ مَّرَدًّا**)[1].

وبلغ الغلو مبلغه من القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر حين خلع على ولي العهد/ الأشرف خليل من الصفات ما هو خاص بالكتاب العزيز، وذلك أن قوله: "ومَنْ يُبَشِّرُ الله به الأولياء المتقين ويُنْذِرُ به من الأعداء قومًا لُدًّا" مأخوذ من قوله تعالى: (**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ المُتَّقِينَ وتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**)[2].

ويمكن أن نلتمس للكاتب العذر فيما خلع على ولي العهد من هذه الصفات؛ لأنه أراد في الوقت نفسه أن يصف أعداء الدولة المملوكية بما وصف الله Y به أعداء الدعوة الإسلامية في عصر المبعث من اللَّدَد في الخصومة.

---

(١) سورة مريم الآية٧٦.

(٢) سورة مريم: الآية ٩٧، وراجع تفسير القرطبي، مصدر سابق، ص٤٢٠١.

٤- وعندما تحدث الكاتب عما فُوِّضَ فيه وليُّ العهد قال: "اقتضى حسن المناسبة لنصائح الجمهور، والمراقبة لمصالح الأمور.....؛ أن نُفَوِّضَ إليه ولاية العهد الشريف بالسلطنة الشريفة .....، وأن تبسط يده المنيفة لمصافحتها بالعهود، وتحكيمها في العساكر والجنود، ....، وفي المثيرات في الإعداء على الأعداء نقعا، وفي المغيرات صبحا، وفي المنع والإطلاق، وفي الإرفاد والإرفاق، .....، وفي السيوف إذا بلغت التراقي وقيل من راق، وفي الرماح إذا التفت الساق منها بالساق"(١).

وهكذا أطلق المنصور قلاوون يَدَ وَلِيِّ العهد في كل ما يخص أمور السلطنة الإدارية، والسياسية، والاقتصادية، والحربية.

ويستوقفنا في هذه الفقرة حديث الكاتب عن تفويض ولي العهد في الاعتناء بالخيل؛ لأنه مأخوذ من قول الله تعالى في أول سورة العاديات: **(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا)**(٢).

ويستوقفنا – أيضًا – الحديث عن تفويض ولي العهد في قيادة المعارك الحربية لتأثر الكاتب في صياغته بآيات سورة القيامة: **(كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ * والْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ)**(٣).

٥- ويكتظ الجزء الخاص بالوصايا المقدَّمَة لولي العهد من التقليد بالاقتباس من القرآن الكريم، فلقد أوصى المنصور قلاوون ابنه بالأسطول البحري قائلاً: "كذلك نوصيك بالجيش الذي له المنشآت في البحر كالأعلام؛

---

(١) نهاية الأرب للنويري ٨/١١٦.

(٢) سورة العاديات: الآيات ١، ٢، ٣، ٤.

(٣) سورة القيامة: الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩.

فهو جيش الأمواه والأمواج، المضاف إلى الأفواج من جيش الفجاج، وهو الجيش السليماني في إسراع السير، وما سميت شوانيه غِرْبانًا إلا لِيُجْمَعَ بها لنا ما اجتمع لسليمان υ من تسخير الريح والطير"[١].

فالكاتب في هذه الفقرة واقع تحت تأثير وصف القرآن الكريم للسفن في مثل قوله تعالى: (**ومِنْ آيَاتِهِ الجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ**)[٢]، وقوله عزشأنه: (**ولَهُ الجَوَارِ المُنشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ**)[٣].

ولا يخفى تأثر القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر في هذه الفقرة – أيضًا – بما ورد في القرآن الكريم من آيات تصف ملك سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام من مثل قوله تعالى: (**وحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**)[٤]، وقوله تعالى: (**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ**)[٥]، وقوله تعالى: (**فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ**)[٦].

ومما تجدر الإشارة إليه تعليقًا على ما جاء بهذه الوصية أن ما ذكره القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر من وصفٍ للأسطول البحري المصري ليس محض مبالغة من كاتب مترسل يطلق لخياله العنان، فلقد اهتم الظاهر بيبرس وَمَنْ تلاه من سلاطين المماليك في القرن السابع الهجري كالمنصور قلاوون، والأشرف خليل بصناعة السفن، وتمكنوا من تجديد الأسطول

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، الشهاب الدين النويري، ٨/١٢٠– ١٢١.

(٢) سورة الشورى: الآية٣٢.

(٣) سورة الرحمن: الآية٢٤.

(٤) سورة النمل: الآية١٧.

(٥) سورة سبأ: الآية١٢.

(٦) سورة ص، الآية٣٦.

البحري المصري وتطويره، واستطاعوا السيطرة على حركة الملاحة في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وحققت هذه السيطرة للدولة المملوكية بمصر والشام انتصارات عسكرية على أعدائها، وحققت لها ازدهارًا اقتصاديًا من جراء فرض هؤلاء السلاطين رسومًا عالية على السفن التي كانت تحمل تجارة الهند والشرق الأقصى إلى أوروبا عن طريق هذين البحرين، مما دفع الممالك الأوروبَّية في ذلك الزمان إلى التفكير في إيجاد طريق آخر لهذه التجارة" واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح(١).

وأوصى المنصور قلاوون ولده الأشرف خليل بالحرمين الشريفين قائلاً: "وبيتُ الله المحجوجُ من كل فَجّ، المقصودُ من كل نَهْج، يَسِّر سبيله، واحْمه ممن يُرِدْ فيه بإلحادٍ بظلم، وطهِّرْه من كل مكس وغُرْم، ليعود نفعُك على البادي والعَاكَف، وأوصِلْ مِنْ بِرّكَ لكلٍّ من الحرمين ما هو له"(٢).

وتدور هذه الوصية حول الأمر بتعبيد الطرق الموصِّلة إلى الحرمين الشريفين وتأمينها، ورفع المكوس والإتاوات عن أهل مكة المكرمة، وتأمين البيت الحرام وحمايته من أن يقع فيه شرك، أو قتل، أو صيد، والعناية بنظافته، وإنارته، وفرشه، والحرص على أن تجبى إليه ثمرات كل شيء برًّا بِهِ، وتوقيرًا له.

ولقد تأثر الكاتب في هذه الفقرة بقوله تعالى: (**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**)(٣)، وبقوله تعالى: (**وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ**

---

(١) البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، مرجع سابق، ص١٢٦، ١٢٧.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، الشهاب الدين النويري، ١٢٣/٨.

(٣) سورة الحج: الآية٢٥.

عَمِيقٍ)[1]. حيث اقتبس من الآية الأولى بعض ألفاظها وعباراتها، وحَلَّ جزءًا كبيرًا من نص الآية الثانية، وأدرجه في ثنايا كلامه بالمعنى لا باللفظ.

وفي الوصية بسائر المساجد قال السلطان لولده: "وبيوت العبادات فهي التي إلى مُصَلَّى سميك خليل الله تنتهي محاريبها، وبها لنا ولك وللمسلمين سُرَى الدعوات وتأويبُها، فوفِّها نصيبَها المفروض غير منقوص، ومُرْ برفعها وذكر اسم الله فيها حسب الأمر المنصوص"[2].

ففي هذه الوصية يحث السلطان ولده على الاعتناء بسائر المساجد لأنها موصولة الأسباب بخليل الرحمن إبراهيم υ لأن الواقفين في محاريبها يتجهون في صلواتهم إلى أول بيت وضع للناس، وهو البيت الحرام الذي رفع القواعد منه أبو الأنبياء إبراهيم هو وولده إسماعيل عليهما السلام.

ويظهر في نهاية الفقرة تأثر الكاتب بقوله Y : (**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ)**[3].

وفي نهاية الجزء الخاص بالوصايا جاءت الوصية بالرعية، وفيها يقول: "والرعايا فهم للعدل زروع، وللاستثمار فروع، ولاستلزام العمارة شروع، فمتى جادهم غيث أعجب الزراع نباتُهم، ونَمَتْ بالصلاح أقواتُهم، وصَلُحَتْ بالنماء أوقاتُهم، وكَثُرَتْ للجنود مستغلاتُهم، وتوافرتْ زكواتهم"[4].

يريد المنصور قلاوون أن يقول لولده: إن اهتمام الراعي بالرعية، وحُنُوَّهُ عليهم، وإقامَتَهُ العدلَ فيما بينهم يحقق التنمية الشاملة التي تعود بالنفع على الحاكمين والمحكومين في آنٍ واحدٍ معًا.

---

(١) سورة الحج: الآية٢٧.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري ١٢١/٨.

(٣) سورة النور: الآية٣٦.

(٤) نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٢٣/٨.

وقول القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر في هذه الوصية " فمتى جادهم غيث أعجب الزراع نباتُهم" مقتبس من حديث القرآن عن وصف المؤمنين برسول اللهρ في الإنجيل، قال تعالى: (**وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ...**) [١]، ومقتبس – أيضًا– من قوله تعالى في وصف الحياة الدنيا (**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ**)[٢].

أرأيت كيف اقتبس القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر في هذه النصوص التي حَلَّلناها من رسالة واحدة من إحدى رسائله ثلاثة وعشرين اقتباسًا من ثماني عشرة سورة من القرآن الكريم وهي: البقرة، وآل عمران، وهود، والنحل، ومريم، والحج، والنور، والنمل، وسبأ، وص، والشورى، والفتح، والذاريات، والرحمن، والواقعة، والحديد، والقيامة، والعاديات؟.

ومما لا ريب فيه أن هذه الاقتباسات على هذا النحو الذي رَصَدْتُهُ وحلَّلْتُهُ تُمثِّل "شكلا تناصِيًّا يرتبط فيه المدلول اللغوي – وهو اقتباس الضوء – بالمفهوم الاصطلاحي الذي يتمثل في عملية الاستمداد التي تُتِيحُ للمبدع أن يُحْدِثَ انزياحا محدودًا في خطابه بهدف إضفاء لون من القداسة على جانب من صياغته"[٣].

ومما لا ريب فيه أن القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر كان بحاجة في هذه الرسالة التي حللناها إلى "إضفاء لون من القداسة على جانب من صياغته" نظرًا لجلال الموضوع الذي يكتب فيه، وجلال الشخص الذي

---

(١) هذا جزء من منتصف الآية رقم ٢٩ من آيات سورة الفتح.

(٢) هذا جزء من منتصف الآية رقم ٢٠ من آيات سورة الحديد.

(٣) قضايا الحداثة عند عبدالقاهر الجرجاني، لأستاذنا الدكتور محمد عبدالمطلب، ص١٥٤، سلسلة أدبيات، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٥م.

يكتب عنه، وجلال الشخص الذي يكتب له، وجلال المناسبة التي أوحت بهذا الكتاب.

أما موضوع النص فهو ولاية عهد السلطنة بمصر والشام، وحكم مصر بصفة عامة أمرٌ رفيع القدر، جليل الشأن، فلقد رُوِيَ عن عمرو بن العاص τ أنه قال: "ولاية مصر جامعة تَعْدِلُ الخلافة"(١)، ويُرْجِعُ العلماء ذلك إلى ما خص الله به مصر من المزايا التي على رأسها ورود ذكرها في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة(٢)، وورد ذكرها في السنة النبوية الشريفة في عشرة أحاديث(٣)، ونزول عدد من الأنبياء بها(٤)، ودعاء عددٍ من الأنبياء لها(٥)، ولكثرة موانيها، قال ابن ظهيرة: "فمصر فرضة(٦) الدنيا، يُحْمَلُ من خيرها إلى سواحلها وإلى سائر البلاد: فمن جهة القلزم (البحر الأحمر) ينقل إلى الحرمين، وإلى جدة، وعمان، وعدن، والهند، والصين، وصنعاء، والشِّحْر، والسِّند، وسواحل البحر، ومن جهة تَنِّيس دمياط والفرما فرضة بلاد الروم، وأقاصي الإفرنجة وقبرص، وسائر سواحل الشام والثغور إلى حدود العراق، ومن جهة الإسكندرية فرضة إفريطش، وصقلية، والغرب كله إلى طنجة ومغرب الشمس، ومن جهة الصعيد فرضة النوبة، والحبشة"(٧)

---

(١) الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، لابن ظهيرة، تحقيق مصطفى السقا، وكامل المهندس، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٨١.

(٢) يراجع في المواضع التي ورد فيها ذكر مصر في القرآن الكريم كتاب حسن المحاضرة، لجلال الدين السيوطي، مصدر سابق، ١/١١- ١٤.

(٣) الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، مصدر سابق، ص٧٤.

(٤) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مصدر سابق، ١/٤٨- ٥٣.

(٥) الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، مصدر سابق، ص٧٨، ٧٩.

(٦) الفرضة: الميناء الذي هو محط السفن.

(٧) الفضائل الباهرة، ص١٠١، ١٠٢.

ويرجع العلماء أهمية حكم مصر – أيضًا – لما بها من المساجد "التي تعرف فيها الإجابة والبركة"[١]، والبقاع الشريفة كجبل المقطم، والوادي المقدس طوى، ولأن النيل يجرى في أرضها، ولأن بها الأهرام، ومنارة الإسكندرية؛ وعمود السواري، وغيرها من الآثار، ولأن حاضرتها القاهرة التي يصفها ابن ظهيرة فيقول إنها "ليست بمدينة واحدة، بل مدن مجتمعة، إذ في كل شارع، وخط، ومحلة منها بيوت ودوروب، وأسواق وجوامع ومدارس تصلح أن تُفْرَدَ بمدينة، بل في كل ربع من ربوعها ما تعمر بهم قرية"[٢].

هذا عن جلال ولاية مصر، أما عن جلال المكتوب عنه، السلطان المنصور قلاوون فلقد وصفه ابن حبيب الحلبي فقال: "كان ملكًا مهيبًا، حليمًا، كثير العفو، شجاعًا، خيِّرًا، حسن السياسة، تام الشكل، وافر الوقار، عليه جلالة عظيمة، ملك من المماليك الترك والمغل وغيرهم مالم يملكه أحدٌ قبله من ملوك الديار المصرية في الإسلام"[٣].

فها أنت ذا ترى أن ابن حبيب الحلبي قد أرجع جلال قدر المنصور قلاوون إلى جمال هيئته، وكريم أخلاقه، وإلى تكَثُّرِهِ بشراء المماليك من المغل والترك؛ ليكونوا خدمًا له وأعوانًا، وجندًا له وأنصارا.

ويُرْجِعُ ابن أبي حَجَلَة التلمساني الفضل فيما وصل إليه المنصور قلاوون إلى تَدَيُّنِهِ، وإلى سعيه في أعمال البر فيقول: "كانت له في معرفة النظر في الكشف اليد الطولى، وله في ذلك الغرائب والعجائب، فهو ممن تجنب السبع الموبقات، وله في القاهرة الأوقاف المبرورة، والمدرسة المشهورة،

---

(١) السابق نفسه، ص١٠٤.

(٢) السابق نفسه، ص١٨٨.

(٣) تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه، لابن حبيب الحلبي، مصدر سابق، ١/١٣٥.

والبيمارستان الذي هو من حسنات الزمان، وتحتاج إليه الملوك، ويفتقر إليه الغني والصعلوك"[١].

أرأيت كيف ينظر ابن أبي حجلة إلى المنصور قلاوون؟ إنه يراه رجلا متصوفًا، موصولاً بالله Y، صاحب كرامات وولاية، مؤمنًا كامل الإيمان، لا يشرك بالله شيئًا، ولا يأتي شيئًا من أعمال السحر والشعوذة، ولا يعتقد في السحرة والدجالين، ولا تميل نفسه إلى سفك الدماء، أو أكل أموال الناس بالباطل، ولايقع في أعراض الناس، ولا يتولى يوم الزحف، وإنما يصمد ويثبت، وحسبه أنه "أكثر من الفتح والفتوحات، فكسر التتار سنة ثمانين"[٢]، ويدفعه تَدَيُّنُهُ إلى العمل الخيري؛ فلقد أنشأ البيمارستان المنصوري، وأوقف عليه أوقافًا كثيرة.

وهذا الذي قاله ابن أبي حجلة تشهد به وثيقتا وقف لهذا السلطان على مصالح البيمارستان الذي أنشأه، تحتفظ بهما دار الوثائق القومية بالقاهرة، كتبت أولاهما بتاريخ ١٢ صفر ٦٨٥هـ/٩إبريل ١٢٨٦م، وكتبت الأخرى بتاريخ ٢١صفر٦٨٥هـ/ ١٨إبريل ١٢٨٦م، وتشير الوثيقتان إلى أن هذا البيمارستان "لمداواة مرضى المسلمين من الأغنياء المثرين، والفقراء والمحتاجين بالقاهرة ومصر وضواحيهما، من المقيمين بهما والواردين إليهما من البلاد والأعمال، على اختلاف أجناسهم وأوصافهم، وتباين أمراضهم وأوصابهم، من أمراض الأجسام، وأمراض الحواس خفيت أو ظهرت، واختلال العقول التي حُفظها أعظم المقاصد، ويقيم به المرضى الفقراء من الرجال والنساء لمداواتهم إلى حين بروئهم وشفائهم، ويصرف ما هو مُعَدٌّ فيه

---

(١) سكردان السلطان، لابن أبي حجلة التلمساني، تحقيق الدكتور علي محمد عمر، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١- ٢٠٠١م، ص٥٤.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

للمداواة ويفرّق للغني والفقير، والرفيع والوضيع من غير اشتراط لعوض من الأعواض"[١].

والمكتوب له/ ولي العهد الأشرف خليل كان "ليثًا همامًا، وبطلا ضرغامًا، أفنى أوقاته في الحروب، وأخذ بثأرابن أيوب، ولاسيما حين فتح عكا، ودك أرضها بسنابك خليه دكا دكا، فهدم أسوارها، وأسر أبكارها، وقتل علوجها، ورعى مروجها"[٢].

وكان يزهو بعبقريته العسكرية فلقد "منع كتاب الإنشاء أن يكتبوا لأحدٍ من الأمراء والنواب الزعيمي، وكان يقول: من زعيم الجيوش غيري؟"[٣].

ويبدو أن الأشرف خليل كان قد حصَّل شيئا من الثقافة العربية جعله محل تقدير كتاب الإنشاء وإعجابهم، لأن القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر يقول في الحديث عن مناقب هذا السلطان: "ما رأيت ولا سمعت بأسبق من ذهنه إلى الفهم، ولا أدرك منه لما يُزِيلُ الوهم، ولقد كتبت عنه، واسُتْكتِبْتُ، واستدرك عليَّ وعلى الكتَّاب، وخَرَّجَ أشياء كثيرة معه فيها الصواب، وذلك بحسن تَعَطُفٍ وتَلَطُف"[٤].

وعندما تولى السلطنة رفع عن الناس ما كانوا يعانون منه من المظالم، فلقد "كان يؤخذ على حِمْل الجمل من القمح خمسة دراهم مكًسا في باب الجابية بدمشق، فأوَّلُ ولايته وردتْ منه مسامحةٌ بإسقاط ذلك، وبين

---

(١) تذكرة النبية في أيام المنصور وبنيه، لابن حبيب الحلبي، مصدر سابق، ٣٠٢/١، ٣٠٣، وقد حقَّق هاتين الوثيقتين ونشرهما الدكتور محمد محمد أمين أستاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب القاهرة.

(٢) سكردان السلطان، مصدر سابق، ص٥٦.

(٣) سكردان السلطان، ص٥٧.

(٤) السابق نفسه، ص٥٦، ٥٧.

سطور المرسوم بخطه بقلم العلامة: وَلْنكشِفْ عن رعايانا هذه الظلامة، ونستجلبْ الدعاء لنا من الخاصة والعامة"[١].

هي أمور ثلاثة إذًا، تلك التي استطاع بها الأشرف خليل تَسَنُّم ذروة المجد، وتَبَوَّأ بها منزلة رفيعة في أفئدة المصريين أولها: انتصاره على فلول الصليبيين، وثانيها: رفعه المظالم عن الناس، وثالثها: اهتمامه بعلوم العربية والإسلام، وإيناس أربابها بمشاركاته في مطارحاتهم الأدبية، ومناقشاتهم اللغوية[٢].

والمناسبة التي أوحت بهذا الكتاب هي وفاة الصالح علي، وخلو منصب ولي العهد بالديار المصرية، لقد كان الصالح علي "علىَّ الهِمَّة، حسن النِّعمة، معدودًا في نجباء الأنباء"[٣]، لذا "عهد أبوه الملك المنصور إليه، واعتمد في تدبير المملكة عليه، فمات بعد أن خُطِبَ له معه على المنابر، ونَطَقَتْ بمراسيمه الشريفة ألسنة الأقلام في أفواه المحابر"[٤] فاشتدَّ الحزن بالناس عليه، وكان القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر لا يفتأ يردِّد "كان من غرضنا أن نجعله ملكًا في الدنيا فجعله الله ملكًا في الآخرة"[٥].

تلك هي شبكة الظروف المعقدة التي كان الكاتب/ القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر واقعًا تحت تأثيرها أثناء تدبيج هذا التقليد، وهي التي دفعته إلى الإكثار من الاقتباس من القرآن الكريم بغية إضفاء لون من الفخامة على ما يكتب.

---

(١) السابق نفسه، ص٥٧.
(٢) السابق نفسه، ص٥٦.
(٣) السابق نفسه، ص٥٥، ٥٦.
(٤) السابق نفسه، ص٥٦.
(٥)السابق نفسه، ص٥٦.

المبحث الرابع

استدعاء الموروث الشعري في نصوص هذه الرسائل

أعترف في البدية بأن عنوان هذا المبحث سيطرح على الأذهان تساؤلين أولهما عن السِّرِّ في استخدام المصطلح التراثي القديم "الاقتباس" عند دراسة النصوص المُضَمَّنَة من القرآن الكريم في رسائل القاضي محيي الدين ابن عبدالظاهر، والآخر عن الحديث عن استدعاء الموروث الشعري في نصوص هذه الرسائل، وهي رسائل ديوانية.

١- وفي الحقيقة أنني استعملت كلمة "الاقتباس" عند الحديث عن أثر القرآن الكريم في أسلوب القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر لثلاثة أسباب، أولها: رغبتي في الاستفادة من دلالات هذا المصطلح في لساننا العربي، فهو ينتمي إلى الجذر المعجمي "قَبَسَ" الذي يدل على أمرين أولهما مادِيّ، وهو: استمداد النار للانتفاع بها في قضاء الشئون المادية من مثل طهي الطعام، والتدفئة، والإضاءة ودفع الظُّلْمَة، والآخر معنوي وهو: استمداد النور بمعناه المجازي الذي هو العلم، أو المعرفة، أو الهداية، أو الاهتداء. قال ابن منظور: "القَبَسُ: الجَذْوَةُ وهي النار التي تأخذها في طرف عود"(١)، وقال: "وقبست منه نارا أَقْبِسُ قَبْسًا، وكذلك اقتبستُ منه نارًا، واقتبستُ منه علمًا – أيضًا – أي استفدته"(٢)، وأنت واجد هاتين الدلالتين في قوله تعالى: (**وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى**)(٣)، وفي قوله Y (**فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وسَارَ**

---

(١) لسان العرب، ٥/٣٥١٠.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) سورة طة: الآية ١٠.

بَأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ)[1].

ففي هاتين الآيتين الكريمتين يحكي القرآن المجيد أن نبي الله موسىυ أمر أهله بالمكث والانتظار، وعدم مغادرة المكان الذي هم فيه؛ لأنه رأى نارا يريد أن يذهب إليها؛ ليأتي لهم منها بجذوة ينتفعون بها في شئونهم المادية، وليأتي لهم – أيضًا – من عندها بخبر عن الطريق التي يجب عليهم أن يسلكوها ليدخلوا مصر[2].

ولقد كان عرب الجاهلية يحرصون على إشعال النار على رءوس الجبال للقرى، وليهتدي بها السائرون في ظلمات الليل البهيم؛ رجاء اكتساب المحامد، وحسن الأحدوثة بين الناس[3].

ولئن أضاء القَبَسُ المكان المظلم، وأعلى من شأن المضيف المطعِم، فإن الاقتباسات بعامة، والقرآنية بخاصة تكسو الكلام "معرضا ما لحسنه غاية، ومأخذًا ما لرونقه نهاية"[4]، وتكسب نظامه تزيينا، وشأنه تفخيما[1].

---

(١) سورة القصص، الآية ٢٩.

(٢) تفسير القرطبي،

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي، للدكتور أحمد محمد الحوفي، ص٣١٠، وما بعدها، الطبعة الخامسة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة، ١٩٧٢م.

(٤) الاقتباس من القرآن الكريم، لأبي منصور الثعالبي، الجزء الأول، تحقيق الدكتورة ابتسام مرهون الصفار، تقديم الدكتور عبدالحكيم راضي، نشر سلسلة الذخائر،

هـذا عـن السـبب الأول الـذي جعلنـي أوثـر مصـطلح الاقتبـاس بالاستعمال عند الحديث عن أثر القرآن الكريم في ترسُّل القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر.

أما السبب الثاني فهو إيماني بوجوب انطلاقنا عند تحليل نصوص أدبنا العربي الخالد من موروثنا النقدي والبلاغي الذي "ينطوي على أفكار تناصية هامة تشير إلى أن النقد العربي قد سبق له أن طرح الكثير من أبعاد مفهوم التناص كما يقدمه النقد الغربي المعاصر"(٢).

والسبب الثالث الأخير هو رغبتي في تجنب مالا يتفق من مقولات بعض النقاد الغربيِّين مع ثقافتنا العربية والإسلامية، كمقولة "موت المؤلف" التي نادى بها الناقد البنيوي الفرنسي "رولان بارت"، لقد كان بارت يريد أن يفتح الباب على مصراعيه أمام القارئ/ الناقد ليُعْمِلَ ذهنه فيما يقرأ، ويدرس، وينقد من نصوص، باعتبارها إبداعات لغوية، تستمد جماليَّاتِها من داخلها، ولا تستمدها من شيء آخر من خارجها كثقافة الكاتب، أو اتجاهه الديني، أو الأدبي، أو السياسي، أو علاقته بأدباء عصره؛ لذا أعلن موت المؤلف ليحرر القارئ/ الناقد من التقيد أثناء تحليل النصوص بأية فلسفات أو إيديولوجيات،

العدد رقم ١٠٧، ص٣٩.

(١) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للإمام فخر الدين الرازي، تحقيق ودراسة الدكتور بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، ص٢٨٨.

(٢) التناص وإشاريات العمل الأدبي، الصبري حافظ، مقال بمجلة البلاغة المقارنة ألف، العدد الرابع، ربيع ١٩٨٤م، ص٣٠، وعلم التناص والتلاص، لعز الدين المناصرة، الذي جعل الفصل الثالث منه عن "التناص والتلاص في الموروث النقدي" من ص١٠١ إلى ص١٥٧، سلسلة كتابات نقدية، العدد ١٩٩، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١١م

أو مناهج تاريخية، أو اجتماعية، أو نفسية من تلك التي يتم استدعاؤها للحكم على النص[١]، وفي هذا يقول: "النص تميمة، وهذه التميمة ترغب فِيَّ، ويخطب النص وُدِّي عن طريق ترتيب كامل لشاشات غير مرئية، وعن طريق مماحكات انتقائية تتصل بالمفردات، وبالمراجع، وبقابلية القراءة، والآخر المؤلف يضيع دائما وسط النص لا وراءه على شاكلة إله من آلهة آلية من الآليات، لقد مات المؤلف من حيث هو مؤسسة، اختفى شخصه المدني، الغرامي، السيري، ولمَّا جُرِّدَ من كل ما لديه فإنه لم يعد يمارس على مُؤَلَّفِهِ تلك الأبوة الرائعة.." [٢].

ودعك من ركاكة الترجمة، وقف معي عند تناقض رولان بارت في نصه، ذلك التناقض الذي لم يلتفت إليه أحد من مترجميه، لقد ذكر بارت أن المؤلف يقف في وسط نصه ضائعًا، فهو – إذًا – حيٌّ لا ميت، وأستطيع أن أفسِّر الضياع الوارد في نص بارت بحيرة المؤلف، وخوفه من تفسيرات القراء أو النقاد، وتأويلاتهم التي قد تفضح ما اجتهد في إخفائه من مضامين، ثم في الجملة التي تليها مباشرة يفاجئنا بالحديث عن موت هذا المؤلف، ويأبي بارت إلا أن يجعل هذا المؤلف الميِّت موغلا في العدم؛ فهو قد اختفى بشخصه كما يختفي الأموات بأشخاصهم، ثم هو أسوأ من الموتى حالاً؛ لأنه قد توارى – أيضًا – بروحه فلم يعد مصدر إلهام لقارئ، أو ناقد، أو دارس.

---

(١) المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك للدكتور عبدالعزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة العدد٢٣٢، الكويت، إبريل ١٩٩٨م، ص٢٩٤.

(٢) لذة النص، رولان بارت، ترجمة فؤاد صفا، والحسين سبحان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، ص٣٣، وهي ترجمة ركيكة، وترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، ص٥٥، ٥٦، وهي ترجمة ركيكة الأسلوب أيضًا، وقد تكون ركاكة هاتين الترجمتين راجعة في المقام الأول إلى تهافت النص المترجم.

حقًّا لقد حَيَّرَنَا بارت، وصِرْنَا لا ندري أَحَيٌّ ذلك المؤلف المسكين أم ميت!

ثم دع عنك تناقضه، وانظر إلى تصوره للألوهية، إنه يقول بتعدد الآلهة من ناحية، ويجعل الكاتب أو المؤلف إلها من ناحية أخرى، ثم يصم هذا المؤلف/ الإله بالضياع مرة، وبالموت مرة أخرى.

وهذه الأفكار والتصورات لا تصح في تصوري نسبتها إلى بارت؛ لأنها ليست أفكاره وتصوراته، وإنما هي أفكار فلاسفة اليونان التي تم إحياؤها واستلهامها على أيدي طائفة من مفكري عصر النهضة في أوروبا(١)، وهي في مجموعها لا تنسجم مع الثقافة العربية الإسلامية؛ لأننا نؤمن بالله الواحد الأحد، الحي القيوم، الذي ليس كمثله شيء، المتصف بكل كمال، والمنزَّه عن كل عيب ونقص، وأن البشر كتابا وغير كتاب ليسوا آلهة، وإنما هم عباد لله تعالى، محاسبون على أعمالهم، ولا تنقطع صلاتهم بأعمالهم بعد موتهم، وإنما تظل ثابتة النسبة إليهم بكل ما فيها من خير وشر، ومن نفع وضر، ولا تجوز سرقتها، وإنما يُسْتَفَادُ منها بشتى الضروب التي نَبَّه عليها البلاغيون في مباحث السرقات(٢).

---

(١) ينظر كتابا "الإلحاد في الغرب"، و"ملحدون محدثون ومعاصرون"، للدكتور رمسيس عوض، وقد أَرَّخَ في الكتاب الأول للإلحاد الغربي منذ أقدم العصور، وفي الصفحات من صفحة ٧ إلى صفحة ١٢ حديث عن الإلحاد عند اليونان القدماء، وأَرَّخَ في الكتاب الثاني للإلحاد الغربي في العصر الحديث، ويراجع بوجه خاص الفصل الذي تحدث فيه عن نيتشه من ص١٨ إلى ص٢٣، والفصل الخاص بالمدرسة المنادية بموت الإله من ص ٢٤ إلى ص٣١، وقد طبعت الكتابين دار سينا للنشر بالقاهرة بالاشتراك مع الانتشار العربي ببيروت، وصدر الكتاب الأول عام ١٩٩٧م، وصدر الكتاب الثاني في عام ١٩٩٨م.

(٢) واقرأ نقدًا آخر لمفهوم "موت المؤلف وحياة القارئ" في نظرية التناص الحديثة

٢- ونأتي إلى استدعاء الموروث الشعري في نصوص هذه الرسائل، وأعني باستدعاء الموروث الشعري ما عناه نقدة النثر في التراث العربي من إيراد الأبيات الشعرية، وأنصاف الأبيات في نصوص هذه الرسائل على سبيل الاستشهاد، والتضمين، والحل.

وألاحظ – ابتداء – قلة هذا الاستدعاء، وهذا يدل – في تصوري – على وعي القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر بطبيعة الكتابة الديوانية، ووظيفة الكاتب الديواني؛ فإن الشأن في الرسائل الديوانية أنها تكتب عن الحاكم/ الخليفة، أو السلطان إلى حكام الدول أو الأمم المجاورة، أو إلى ولي العهد، أو إلى ولاة الأقاليم، أو إلى قادة الجيوش، إو إلى القضاة، متضمنة أحداثًا ووقائع، وعهودًا ووثائق، وتعليمات وتوجيهات، ومن ثم يجب أن تصاغ صياغة دقيقة، تسطع فيها الحقائق؛ وتفند فيها الأباطيل بالحجج العقلية والبراهين المنطقية، وتُكْتَبُ فيها الأوامرُ بلغة حازمة حاسمة، تُحَاكِي شموخ الآمِرِ بها، وقوةَ بأسِهِ، ورفيع سلطانه؛ وقدرته على معاقبة المخالفين عن أمره.

هذه هي طبيعة الكتابة الديوانية، وهي تغاير كل المغايرة طبيعَة الشعر التي يراها نَقَدَةُ النثر في تراثنا العربي تقوم "على معانٍ أكثرها مستحيل، وأقوالٍ جُلُّها كذب، لا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أفحل الأشعار، فإنه يشتمل على قول البهتان، وشهادة الزُّور، وسبِّ الأعراض،

للدكتور عوض الغباري في "التناص في شعر ابن نباتة المصري" د. عوض علي الغباري، بحث منشور بأول ديوان ابن نباتة المصري الذي نشرته سلسلة الذخائر بالهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، العدد ٦٠، القاهرة ٢٠٠٧م.

وقذف المحصنات، والقدح في الأنساب الصريحة، وقبح الهجاء، وما يجاري هذا مما يجب التَّنَزُّهُ عن الخوض فيه، والتَّصُّونُ عن إطلاق اللسان به"[١].

والكاتب الديواني هو "جهينة الأخبار، وحقيبة الأسرار، ...، وهو البشير والنذير، والشفيع والسفير، به تُسْتَخْلَصُ الصياصي، وتُمْلَكُ النواصي، ويُقْتَادُ العاصي ويُسْتَدْنى القاصي"[٢]، وهو "لسان الملك الناطق بحجته ، المترجم عن عقله ومقالته، وهو حلية المملكة وزينتُها، يرفع ذكْرَها، ويُعْلى قدْرَها، ويُعْظِمُ خَطَرَها، وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد، والترهيب والترغيب، والإحماد والإذمام"[٣].

وبمقدورنا من خلال هذه الأوصاف التي خلعوها على الكُتَّاب أن نقرر أن الكتابة في عصر الدول والإمارات المتتابعة قد صارت فن العربية الأول، صحيح أن الشعر كان يزاحمها في ثلاثة القرون الأولى من هذا العصر، لكنه ما لبث بعد ذلك أن ترك لها مكان الصدارة؛ حين رأى الشعراءُ إقبال الملوك والسلاطين على الكُتَّاب، واحتفاءهم بهم، وتقريبهم واستخدامهم في مناصب الوزارة.

ومما لا ريب فيه أن هذه الأوصاف التي خلعوها على الكاتب، والمناصب التي تبوأها الكتَّاب قد ملأت هذه الطائفة كِبْرًا وغُرُورًا، وزَهْوا وعُنْجُهِيَّة، وحِرْصًا على إرضاء سادتهم وأولياء نعمتهم من الملوك والسلاطين، وأولياء عهودهم، ورؤساء دواوينهم، وذلك بكيل المديح لهم،

---

(١) مواد البيان، لعلي بن خلف الكاتب، تحقيق الدكتور حسين عبداللطيف، ص٦١، ص٦٢، منشورات جامعة الفاتح، طبعة ١٩٨٢م.

(٢) المقامات الحريرية، لأبي محمد القاسم بن علي الحريري، طبعة مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، بالقاهرة، د.ت، والنص المقتبس من المقامة الفراتية، وهو بصفحتي ٢١٣، ٢١٤.

(٣) مواد البيان، مصدر سابق، ص٧٥.

والترفع عن إيراد الأشعار فيما يكتبون من الرسائل على ألسنتهم، معتمدين في هذا الترفع على دعوى افترعها نقدة النثر بعد أن أخذوا أصولها عن قول لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وهو يضع في البيان والتبيين أسس النظرية الأدبية العربية، لقد كان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) يتحدث عن أصول فن الخطابة عند العرب، وهو فن شفاهي بطبيعة الحال، فذكر أن "أكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر"(١)، ولا يعنيني الآن الحديث عن خطأ ملاحظة الجاحظ أو صوابها، وإنما الذي يعنيني أنه قال بعدها: "ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء"(٢)؛ لأن هذه العبارة قد أخذها منه بعد ذلك جَمٌّ غفير من نقدة النثر، وأخذوا يُرَدِّدُونها في كتبهم، وفي رسائلهم إلى الكُتَّاب حتى غدت فيما يبدو قانونًا من قوانين الترسل الديواني فها هو ذا إبراهيم بن المدبر (ت٢٧٩هـ) يقول في رسالته إلى الكتاب: "إن تضمين المثل السائر والبيت الغابر مما يزين كتابتك، ما لم تخاطب خليفة أو ملكاً جليل القدر، فإن اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء، والجلة والرؤساء عيب واستهجان للكتب، إلا أن يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له، فإن ذلك مما يزيد في أُبَّهَتِه، ويدل على براعته"(٣).

والجديد في كلام إبراهيم بن المدبر أنه وسع دائرة منع التمثل بالشعر في الرسائل الديوانية من ناحية، وبيّن سبب هذا المنع من ناحية أخرى؛ فبعد أن كان هذا المنع مقصورًا على الرسائل التي تُوَجَّهُ إلى الخلفاء، دخلت فيه الرسائل التي تُوَجَّهُ إلى الملوك والجِلَّة من الرؤساء، وسبب ذلك

---

(١) البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، بتحقيق وشرح الأستاذ عبدالسلام محمد هارون، ١١٨/١.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) الرسالة العذراء، لإبراهيم بن المدبر، في جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، لأحمد زكي صفوت، ١٧٨/٤، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.

فيما يرى راجع إلى الشعر نفسه، لأنه يقلل من شأن هذه الكتب، ويزري بقدرها.

ونمضي إلى أبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب لنجده يقول: "ولا يتمثل في الخطب الطوال التي يقام بها في المحافل بشئ من الشعر، فَإِنْ أَحَبَّ أن يستعمل ذلك في الخطب القصار والمواعظ والرسائل فليفعل، إلا أن تكون الرسالة إلى خليفة فإن محله يرتفع عن التمثل بالشعر في كتاب إليه، ولا بأس بذلك في غيرها من الرسائل"(١).

ويقول في موضع آخر "ولا بأس باستعمال الشعر وإدخاله في الكتب اقتصارًا وتمثيلاً، وأن يقصد بذلك مكاتبة النظراء، ومَنْ دون النظراء المتوسطي المحلّ من الرؤساء؛ ولا يستعمل في الكتب إلى السلطان ووزرائه لأن محلهم يكبر عن ذلك"(٢).

وتأثر أبي الحسين إسحاق بن وهب في هاتين الفقرتين بأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ واضح وضوحًا بَيِّنًا، والجديد الذي يمكن أن يكون في كلامه هو سماحه بإيراد الأشعار في رسائل الوعظ، وتعليله منع إيرادها في الترسُّل الديواني بارتفاع أقدار الملوك والوزراء عن ذلك.

ويتحدث أبو العباس القلقشندي (ت٨٢١هـ) عن الاستشهاد فيقول: و"هو أن يورد البيت من الشعر، أو البيتين، أو أكثر في خلال الكلام المنثور مطابقا لمعنى ما تَقَدَّم من النثر، وأكثر ما يكون ذلك في المكاتبات

---

(١) البرهان في وجوه البيان، لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، نشر مكتبة الشباب بالقاهرة، ١٩٦٩م، ص١٥٣، وقابل بنقد النثر المنسوب خطأ لأبي الفرج قدامة بن جعفر، حققه وعلَّق حواشيه الدكتور طه حسين بك، وعبدالحميد العبادي، مطبعة مصر، ١٩٣٩م، طبعة خاصة بوزارة المعارف العمومية، ص٩٥، ٩٦.

(٢) البرهان في وجوه البيان، مصدر سابق، ص٢٨٤.

الإخوانيات، أما مكاتبات الملوك الآن فقلَّ أن تُسْتَعْمَل فيها الأشعارُ أو يُسْتَشْهَدَ فيها بالمنظوم والمنثور، وقد تجيءُ التلقيحاتُ بأبيات الشعر في غير المكاتبات من الرسائل الموضوعة لرياضة الذهن، وتنقيح الفكر، كالرسائل الموضوعة في صيد ملك، أو فتح بلد، أو نحو ذلك "[1].

ولأن أبا العباس القلقشندي يؤرخ في كتابه "صبح الأعشى" للكتابة العربية، ولديوان الرسائل أو الإنشاء، ويصف تطور نظم هذا الديوان، ومناهج الكتاب في تدبيج رسائلهم الديوانية والإخوانية والوصفية؛ لهذا كله يُعَدُّ كلامُهُ في النص السابق على درجة عالية من الأهمية وهو ها هنا يشير إلى أمرين هما:

أولاً: أن ما سبق أن ذكرناه من منع النقاد الصارم طائفةَ كُتَّابِ ديوان الرسائل من إيراد الشعر في مكاتباتهم الديوانية قد أخذت حِدَّتُهُ تتراجَعُ شيئًا قليلاً بدليل قوله: "وأكثر ما يكون ذلك – يقصد الاستشهاد بالمعنى الذي ذكره– في المكاتبات الإخوانيات" لأن معنى هذا بمفهوم المخالفة أن وجودَهُ في الرسائل الديوانية بقلة أمْرٌ غيرُ مستهجن.

ثانيًا: أن تراث الترسل الديواني حافل بالنصوص التي كتبها أربابها امتحانا للخاطر، أو رياضة للذهن، أو تنقيحًا للفكر في بعض الموضوعات التي لها تعلُّق بمجال المكاتبات الديوانية، وقد أُولعَ الكُتَّابُ في هذه الرسائل بتلقيح جملها وفقراتها بما يوردونه في ثناياها من نصوص الشعر، ويرى القلقشندي أن هذا الصنيع جائز مادام في إطار التمرين والتدريب تنميةً للقدرات الإبداعية للكاتب.

٣- وعلى كل حال؛ فقد أثبتت لي قراءة نصوص رسائل القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر الديوانية أنه كان يورد البيت، أو البيتين، أو

---

(١) صبح الأعشى، مصدر سابق، ١/٢٧٥، ٢٧٦ بتصرُّف.

الأبيات في ثنايا هذه النصوص إيرادًا تتجلى فيه براعة صاحبنا في التمهيد له بكلام يتطابق معناه الكلي العام مع الغرض الشعري الذي ورد في سياقه النص المسْتَدْعَى.

أ- ففي رسالته التي كتب بها عن السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى ملك تونس المستنصر بالله محمد بن أبي زكريا بن عبدالواحد يذكر القاضي محيى الدين أن القاضي زين بن حباسة قد اعترض طريقه بعض اللصوص، واعتدوا على غلامه، ونهبوا ما كان يحمله هذا الغلام من مال وسلاح، ويطلب من الملك الاعتناء بشكواه، ويبيّن نوع هذا الاعتناء فيقول: "يستخلص حقه ممن عليه اعتدى، ويرى من قبسه نورا يجد به هدى، فببارقةٍ يضيء لديه الحالك، وبلمحةٍ يهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك؛ وما هو إلا رسم يرسم به وقد قرب البعيد، وآب الشريد؛ وخاف الخائف، وكفَّ الجانف؛ وجُمِعَت الضوالّ، وضاق على المختزل واسع المجال"(١).

وها أنت ذا ترى أن الظاهر بيبرس قد طلب من الملك التونسي ردَّ الحقوق، وتأمين القاضي هو وغلامه في مسيرهما إلى أن يغادرا الديار الإفريقية، وأمره بتضييق الخناق على المعتدي حتى يتم القبض عليه، وإيقاع العقوبة به، وفي هذه المطالب ما فيها من الدلالة على قوة الدولة المصرية، وعلى رعايتها لأبنائها من رجال القضاء وحمايتها لهم.

ويلفت نظرنا إيراد القاضي محيى الدين في ثنايا كلامه عجز بيت من أبيات الشاعر الجاهلي الصعلوك تأبط شرًا من قصيدته في مديح ابن عمه شمس بن مالك التي أوردها أبو تمام في حماسته(٢)، وفيها يقول:

---

(١) نهاية الأرب للنويري، ٨/١٠٤.

(٢) ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق الدكتور عبدالمنعم أحمد صالح، طبعة سلسلة

وإنّــي لَمُهْـدٍ مــن ثنــائي فقاصــدٌ ∴ بـه لابـن عـمّ الصِّـدْقِ شـمسِ بـن مالـكِ

أَهُـزُّ بــهِ فــي نــدوةِ الحــيّ عِطْفَــهُ ∴ كَمَــا هَــزَّ عِطْفِــي بِالْهِجــانِ الأوَارِكِ

قَلِيــلُ التَّشَــكّي لِلْمُهِــمّ يُصِــيبُهُ ∴ كَثِيــرُ الْهَــوَى شَــتَّى النَّــوَى وَالْمَسَــالِكِ

يَظَــلُّ بِمَوْمَــاةٍ وَيُمْسِــي بِغَيْرِهَــا ∴ جَحيشــاً ويَعْــرَورِى ظهــورَ المهالــكِ

وَيَسْبِقُ وَفْدَ الرّيحِ مِنْ حيث ينْتَحِي ∴ بِمُنَخْــرِقٍ مِــن شَــدِّهِ المتــدارِكِ

إذا خَـاطَ عَيْنَيْـهِ كَـرى النَّـوْمِ لَـمْ يَـزَلْ ∴ لَــهُ كَــالِىءٌ مِــنْ قَلْــبِ شَــيْحَانَ فَاتِــكِ

ويَجْعَــلُ عينيــه رَبِيئَــة قلْبِــهِ ∴ إلــى سَــلَّةٍ مــن حَــدِّ أَخْلَــقَ باتِــكِ

إذَا هَــزَّهُ فِــي عَظْــمِ قِــرْنٍ تَهَلَّلَــتْ ∴ نواجــذُ أفــواهِ المنَايــا الضَّــواحكِ

يَرَى الْوَحْشَةَ الأُنْسَ الأَنِيسَ ويَهْتَدِي ∴ بِحَيْــثُ أهتــدتْ أُمُّ النُّجُــومِ الشَّــوَابِكِ

الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٣٨/١- ٣٩، وديوان تأبط شرًا وأخباره جمع وتحقيق وشرح: علي ذوالفقار شاكر، طبعة دار الغرب الإسلامي، من صفحة ١٤٨ إلى صفحة ١٥٥، وقد دَلَّني على هذا الإيراد الاستاذ أحمد الزين – رحمه الله – في هوامشه النفيسة التي وضعها على نهاية الأرب، ينظر: نهاية الأرب، ١٠٤/٨، هامش رقم (١).

ففي هذا النص يمتدح تأبط شرًا ابن عمه بأنه كثيرُ التحمل، قليلُ الشكوىَ، لا يَجزَع من الخطوب، ولا يفزع من النوائب، ولا يئن إذا ما عَضَّهُ الزمان، خفيفٌ سريعُ العَدْو، قليلُ غرار النوم، تنام عينه ولا ينام قلبه، إذا شعر قلبه بخطر تنبَّهَتْ عينُهُ، فاستلَّ سيفَهُ الفاتِكَ البتَّارَ ليدرأ به عن نفسه هذا الخطر، وإذا رأت عينُهُ خطرًا تَنَبَّه قلبه، وأمده بما يحتاج إليه من رباطة الجأش، لِيُقْبِلَ بسيفه على أسباب هذا الخطر فيدفعها، وهو خبير بمسالك الطرق، لا يحتاج إلى دليل يهديه في سيره في المفاوز والفيافي[1].

هذا ما امتدح به تأبَّط شَرًّا ابن عمه، وفي تصوري أن القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر كان يهدف من تضمين عجز البيت التاسع من أبيات هذا النص الشعري في ثنايا كلامه إلى أن يخلع على غلام القاضي زين الدين بن حباسة ما خلعه تأبط شرًّا على ابن عمه من صفات، وكأنه يريد أن يقول للملك التونسي: إن ما جرى لهذا الغلام لم يكن نتيجة تقصيره في الدفاع عن نفسه، وإنما كان بسبب أنه غريب في دياركم، والغريب كما قيل: لكل سبع فريسة، ولكل كلب قنيصة، ولكل رام رَميَّة[2].

وفي هذه الرسالة نفسها يتحدث القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر عن قدرة الملك التونسي على ردِّ الحقوق وإجابة مطالب القصاد فيقول: "وأي مطلب تُنَاجَى فيه الآلاء المباركة فلا يُصْحِبُ قيادُه، ويُسْتَسْقَى له مُزْنٌ ولا تُعَاهَدُ عِهادُه، وأي ذاهب لا يُسْتَرْجَعُ به ولو أنَّه عَشِيَّاتُ الحمى، وأي فائت لا يُرَدُّ ولو أنَّه زمنُ الشبيبة المعسولُ اللَّمى؛ وحسب العاني أن يحط برحابها

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، نشرة أحمد أمين وعبدالسلام هارون، ٩٢/١-٩٩.

(٢) المحاسن والمساوئ للبيهقي، ٢٨٨/١.

رحاله، أو أن يوفد إلى أبوابها آماله؛ وقد تبادرت إليه المناجح متسابقه، وانتظمت لديه المصالح متناسقه"[١].

والكاتب هاهنا يبالغ في وصف الملك المستنصر بالله محمد بن أبي زكريا بن عبدالواحد بالكرم والجود، ويبالغ – أيضًا – في وصف قوته وبأسه فيقول: إن هذا الملك لا يُخَيِّبُ قاصدا ولا يَرُدُّ سائِلاً، ولا يضيع عنده حق، ويسرف القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر في المبالغة فيزعم أن هذا الملك يستطيع ردَّ الفائت وإن كان زمن الشباب، وإعادة الذاهب وإن كان وقت الصفاء مع الأحباب.

ويبدو في هذه الفقرة تأثر الكاتب بالبيت الثامن من أبيات الشاعر الأموي، الصِّمَّة بن عبدالله القشيري[٢] التي قالها في التشوق والحنين إلى ابنة عمه "ريَّا" بعد أن غادر ديار قومه وأقام بالشام[٣]، تلك الأبيات التي أوردها أبو تمام في أول باب النسيب من حماسته، وفيها يقول الشاعر[٤]:

حَنَنْتَ إِلَى ريَّا ونفسُكَ باعدتْ ∴ مَزَارَكَ مِنْ رَيَّا وشعباكما معًا

فَمَا حَسَنٌ أَنْ تأتي الأمْرَ طَائِعًا ∴ وتَجْزَعَ أَنْ داعي الصبابة أسْمَعَا

قفَا ودِّعَا نجدًا وَمَنْ حَلَّ بالحِمَى ∴ وقُلَّ لِنَجْدٍ عندنَا أنْ تُوَدَّعَا

---

(١) نهاية الأرب للنويري، ٨/١٠٤.

(٢) أرشدني إلى هذا التأثر – أيضًا– الأستاذ أحمد الزين – رحمه الله –. ينظر: نهاية الأرب للنويري، مصدر سابق، ٨/١٠٤، هامش رقم ٥.

(٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، مصدر سابق، ٢/١٢١٦.

(٤) ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق الدكتور عبدالمنعم أحمد صالح، مصدر سابق، ٢/٣٦٥.

وَلمَّـا رأيـتُ البشْـرَ أعَـرْضَ دوننـا ∴ وحالـتْ بنـاتُ الشـوق يَحْـنِنَّ نُزَّعَـا

تَلَفَّـتُّ نحـو الحَـيِّ حتـى وجَـدْتُني ∴ وَجِعْـتُ مِـنَ الإصـغاءِ ليتًـا وَأخْـدَعَا

بَكـت عَيْنـي الْيُسْـرَى فَلَمَّـا زجرتهـا ∴ عَـن الْجَهْـل بعـد الْحلـم أسـبلتا معـا

وأذكُـرُ أَيَّـامَ الحمـى ثـم أنثنـي ∴ علـى كبـدي مـنْ خشـيةٍ أَنْ تَصَـدَّعَا

فليسـتْ عَشِـيَّاتُ الْحمـى برواجِـعٍ ∴ عليـك ولكـنْ خَـلِّ عينيـكَ تَـدْمَعَا

ب- وفـي رسـالته التـي كتبهـا بولايـة العهـد للأشـرف خليـل يـذكر القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر على لسان الملك المنصور قلاوون أنه تخيَّر لولاية العهد: "مَنْ لم يَبْق إلا به أُنْسُنَا بعد ذهاب الذين نُحِبُّهم، وبقي كالسَّيفِ فَرْدا، والذي ما أمضى حدَّهُ في ضريبة إلا قدَّ البيضَ والأبدانَ قدًّا، ولا جَهَّزَ رَايةَ كتيبةٍ إلا أَغْنَى غَنَاءَ الذاهبين وَعُدَّ للأعداءِ عدًّا، ولا بَعَثَهُ جزعٌ فقال: كم مِنْ أخٍ لِيَ صالحٍ إلا لقيه ورعٌ فقال: وخُلِقْتُ يومَ خَلِقْتُ جَلْدَا"(١).

هكذا تحدث القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر حاكيًا على لسان السلطان المنصور قلاوون بعض صفات الأشرف خليل التي أَهَّلَتْهُ لِتَسَنُّم هذه المرتبة الرفيعة، مرتبة ولاية عهد السلطنة بمصر والشام.

والمتأمل في هذا الحديث يجد النص الخامس والثلاثين من نصوص كتاب ديوان الحماسة لأبـي تمام هو النص المسيطر على هذه الفقرة من

---

(١) أرشدني إلى هذا التأثر – أيضًا- الأستاذ أحمد الزين – رحمه الله -. ينظر: نهاية الأرب، ٨/١١٣، هامش رقم٥، وصفحة ١١٤، الهوامش٤، ٥، ٦.

الرسالة[1]، وهو للشاعر الفارس المخضرم عمرو بن معد يكرب الزُّبيدي في الاعتداد بنفسه، والفخر بها، والحديث عن شجاعته وبأسه، وصبره على البلاء، وتوطين نفسه على اللأواء[2].

وهذه هي الأبيات التي اهتدمها القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر في غضون حديثه من نص عمرو:

أَعْـــدَدْتُ للحـــدثان ســـا ∴ بغـــةً وعـــدَّاءً عَلَنْـــدَى

نَـهْـــدًا وذا شُـــطَبٍ يَقُـــ ∴ ـــدُّ البـــيض والأبـــدانَ قَـــدَّا

كـــم مـــن أخ لـــي صـــالِحٍ ∴ بَوَّأْتُـــــهُ بِيَـــــدَيَّ لحْـــــدَا

مـــا إنْ جَزِعْـــتُ ولا هَلِعْـــ ∴ تُ ولا يَـــرُدُّ بكـــايَ زَنْـــدَا

أَلْبَسْـــــــتُهُ أثوابَـــــــهُ ∴ وخُلِقْـــتُ يـــومَ خلقـــت جَلْـــدَا

أُغْنِـــــي غَنَـــاءَ الذاهبيـــ ∴ ـــن أَعُـــدُّ للأعـــداء عَـــدَّا

ذهـــب الـــذين أُحِـــبُّهم ∴ وبَقيـــتُ مِثْـــلَ السَّـــيفِ فَـــرْدَا

---

(١) ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق الدكتور عبدالمنعم أحمد صالح، مصدر سابق،١/٥٦- ٥٧.

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، مصدر سابق، ٢/١٧٩.

ففي هذه الأبيات يفتخر الشاعر بما يمتلك من أسباب القوة المادية، ويفتخر – أيضًا – بما يمتلك من أسباب القوة النفسية، فهو بطل صنديد، متأهب دائمًا لخوض المعامع بما أعد لها من الدرع السابغة التي تقيه ضربات الأعداء، والفرس الضخم الغليظ العدَّاء، والسيف الفاتك البتَّار، وهو رجل ثابت الجنان، لا يصيبه جزع أوهلع إذا أصابه مكروه فيمن يحب، فما أكثر ما ابْتُلِى به من فقد الأصحاب والأتراب فما شغله الحزن عليهم عن تَوَلّى أمر تجهيزهم بنفسه، ومواراتهم الثرى بيديه، ومعنى هذا كله أنه رجلٌ مجبولٌ على الجَلَد، يُهْرَعُ إليه في مواقف الشدة والبأس، ويُرْجَعُ إليه في دقيق الأمور وجليلها بعد أن قضى الأسلافُ نَحْبَهُم، وبقى "منفردا بالسيادة كالسيف لا يُجْمَعُ اثنان منه في غمد"(١).

هذا ما افتخر به عمرو، وأرى أن ما أجراه القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر من هذه الأبيات في الثناء على ولي العهد/ الأشرف خليل على لسان أبيه السلطان المنصور قلاوون في هذا الكتاب؛ أرى أنه يمكن أن يشي بمعرفة الكاتب بما بين هذين الرجلين من صفات مشتركة فلقد كان عمرو بن معديكرب "رجلا جسيمًا، كان طوله عشرة أشبار، وصفه أحدهم بقوله – ولا يخلو من مبالغة:

كأن ذراعيه ذراعا شِمِلَّةٍ ∴ وإصبعَهُ الوسطى تزيدُ على شبرِ"(٢)

وكان الأشرف خليل "ضخمًا، سمينًا، كبير الوجه، بديع الجمال، مستدير اللحية"(٣).

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، مصدر سابق، ١/١٨١.

(٢) شعر عمرو بن معديكرب الزُّبيدي، جمعه ونسَّقه مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م، ص٣٣.

(٣) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن

وعمرو بن معديكرب كان رجلاً أكولاً، روى أبو علي القالي في أماليه قال: "وحدثنا أبو بكر بن الأنباري قال: حدثنا الحسن بن عُلَيل العنزي قال: حدثني مسعود بن بِشْر عن وهب بن جرير عن الوليد بن يسار الخُزاعي قال: قال عمرو بن معديكرب لعمر بن الخطاب τ: يا أمير المؤمنين، أَأَبْرَامٌ بنو مخزوم؟ قال: وما ذاك؟ قال: تضيَّفْتُ خالد بن الوليد فأتى بقوس وكعب وثور[١]. قال: إن في ذلك لشَبْعةً، قلتُ: لي أو لك؟ قال: لي ولك، قال: حِلاً يا أمير المؤمنين فيما تقول، وإني لآكل الجذع من الإبل أنتقيه عظما عظما، وأشرب التِّبْن من اللبن رثيئة وصريفا"[٢]، هكذا تحدث عمرو بن معديكرب عن نفسه، وكان الأشرف خليل "منهمكًا على اللذات"[٣].

وكان عمروبن معديكرب بطلاً صنديدًا، وقد ذكرت ذلك منذ قليل، وأزيد هنا فأشير إلى ما ذكره كتاب التراجم من بلائه الحسن في موقعة القادسية[٤]، ومن أنه شهد مع النعمان بن مُقَرِّن المُزَنيّ فتح نهاوَند[٥].

تغري بردي الأتابكي، الجزء الخامس، حققه ووضع حواشيه دكتور نبيل محمد عبدالعزيز، راجع نشرة مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٨م، ص٢٧١.

(١) القوس: البقية من التمر، والكعب: القطعة من السَّمْن، والثور: القطعة من الأَقِطِ، ينظر: الأمالي لأبي علي القالي، نشرة دار الكتب المصرية، ٣٠٢/٢، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

(٢) التِّبْنُ: أعظم الأقداح، والرثيئة: التي قد صُبَّ عليها ماء، والصريف: اللبن الذي يُنْصَرَفُ به عن الضرع حارًّا، الأمالي لأبي علي القالي، مصدر سابق، ٣٠٢/٢، ٣٠٣.

(٣) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، مصدر سابق، ٢٧٢/٥.

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة: تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ٣٧٢/١، طبعة سلسلة ذخائر العرب، العدد٥٥، دار المعارف بالقاهرة، عام ١٩٨٢م.

(٥) الشعر والشعراء، مصدر سابق، ٣٧٣/١.

وكان الأشرف خليل "بطلا، شجاعًا، مقدامًا، مهيبًا، عالى الهمة، يملأ العين، ويُرْجِفُ القلب، وكان مخوف السطوة، شديد الوطأة، قوي البطش، تخافه الملوك في أمصارها"[1].

ويدل اهتدام القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر لأبيات عمرو بن معد يكرب وإدراجها في ثنايا رسالته على لسان قلاوون؛ يدل على أمرين آخرين هما: محاولة إقناع نفسيهما، ومَنْ وراءهما من أمراء المماليك بجدارة الأشرف خليل بولاية عهد السلطنة، ومحاولة الإشارة إلى ما كان للأشرف خليل من دور في التخلص من أخيه الصالح علي، ليخلو له وجه أبيه، ويتولى منصب ولي العهد.

فلقد حكى المقريزي قصة وفاة ولي العهد الصالح علي بالتفصيل في حوادث عام ٦٨٧هـ، فذكر أنه ظل برفقة والده السلطان الملك المنصور قلاوون سحابة نهار يوم الأحد الخامس عشر من شهر جمادي الآخرة، و"عاد إلى قلعة الجبل آخر النهار فتحرك عليه فؤاده من الليل، وكثر إسهاله الدموي وأفرط"[2]، وأخذ السلطان يتعهده بالعلاج، وطلب الدعاء له من الأولياء والصالحين، وكان يزوره بين الحين والحين للاطمئنان عليه، وظلت حالة الصالح عليّ في تدهور مستمر إلى أن وفاه أجله في صبيحة يوم الجمعة الرابع من شهر شعبان.

وذكر المقريزي أن ما حدث لولي العهد كان بسبب "دوسنطاريا كبدية"[3]، ثم أردف قائلا: "وتحدثت طائفة بأن أخاه الملك الأشرف خليلا قتله"[1].

---

(١) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، مصدر سابق، ٥/٢٧١- ٢٧٢.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، لتقي الدين المقريزي، تحقيق د. زيادة، مصدر سابق، ج١، ق١، صفحة ٧٤٤.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

ويبدو أن السلطان المنصور قلاوون كان يشعر بأن الأشرف خليلاً كانت له يدٌ فيما حدث لأخيه، ويروي المقريزي قصتين تدلان على ذلك، أولاهما جرت وقائعها بعد وفاة الملك الصالح عليّ بسبعة أيام، بعد أن احتفل المماليك بتفويض ولاية عهد السلطنة للأشرف خليل، حيث قدَّم القاضي فتح الدين بن عبدالظاهر؛ وكان رئيسًا للديوان، للملك السلطان المنصور قلاوون نسخة تقليد بتفويض ولاية عهد السلطنة للأشرف خليل، وذلك لاعتماده والتوقيع عليه فرفض. قال تقي الدين المقريزي: في حادي عشر شعبان فوّض السلطان ولاية العهد لابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، فركب بشعار السلطنة من قلعة الجبل إلى باب النصر، وعبر إلى القاهرة، وخرج من باب زويلة، وصعد إلى القلعة وسائر الأمراء وغيرهم في خدمته، ودقت البشائر، ..... وخُلِعَ على سائر أهل الدولة، وخُطِبَ له بولاية العهد، وكُتِبَ له تقليد فتوقف السلطان من الكَتابة عليه"[٢].

هذه هي القصة الأولى، أما القصة الأخرى فجرت وقائعها بعد وفاة السلطان الملك المنصور قلاوون، وتولّي الأشرف خليل أمور السلطنة الذي "جلس على تخت الملك بقلعة الجبل يوم الأحد سابع ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة، .....، وطلب من القاضي فتح الدين بن عبدالظاهر تقليده بولاية العهد، فأخرجه إليه مكتوبًا بغير علامة الملك المنصور، وكان ابن عبدالظاهر يقدِّمه والمنصور يمتنع إلى أن قال له: يافتح الدين: أنا ما

---

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها، ويذكر الدكتور أيمن فؤاد سيد أن القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر هو الذي روى حديث هذه الطائفة، ولم أجد في المصادر التي أحال عليها الأستاذ الدكتور أيمن ما يؤيد دعواه. يراجع مقدمة تحقيق الروضة البهية الزاهوة في خطط المعزية القاهرة، مصدر سابق، ص١٤، وينظر – أيضًا– هامش رقم ٧ من هوامش الصفحة نفسها.

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، للمقريزي، ج١، ق١، ص٧٤٥.

أُولّي خليلا على المسلمين، فلما رأي الأشرف التقليد بغير علامة قال: يا فتح الدين إن السلطان امتنع أن يعطيني وقد أعطاني الله، ورمى إليه التقليد فمازال عند ابن عبدالظاهر"[1].

أرأيت كيف استطاع القاضي محيى الدين باستدعاء هذا النص الحماسِيّ امتداحَ وليّ العهد المنتظر، وتسليةالسلطان الثاكل، والإشارة إلى الأسباب الخفيَّة التي تقف وراء وفاة ولي العهد السابق في آن واحد معًا؟!

وفي هذه الرسالة نفسها يرجو السلطان أن يكون هذا العهد "عهدا مباركةً عُوذُهُ وتمائِمهٌ، وفواتِحُهُ وخواتِمُه، ومناسِمُهُ ومواسِمُه وشروطُهُ ولوازِمُه.

على عاتِقِ الملْكِ الأغرِّ نِجَادُهُ ∴ وفي يد جَبَّارِ السماوات قائِمُه

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك، مصدر سابق، ج١، ق٣، ص٧٥٦.

لا رادَّ لحكمه، ولا ناقضَ لِبْرمِه، ولا داحضَ لما أثبتَتْهُ الأَيامُ من مكنونِ علمه.

ويزيُـدُه مَـرُّ الليـالي جِـدَّةً ∴ وتقـادُمُ الأيـامَ حُسْـنَ شَـبَابِ

وتلزم السنون والأحقاب استيداعه حتى الذراري والأعقاب"[1].

ففي هذا النص أورد الكاتب في ثنايا كلامه النثري بيتين من الشعر أولهما لأبي الطيب المتنبي في مديح سيف الدولة الحمداني[2]، والآخر لأبي تمام، وهو مختتم إحدى قصائده في مديح مالك بن طوق التغلبي[3].

أما بيت أبي الطيب فيغلب على ظنِّي أن القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر قد أورده في هذا السياق ليبين:

الأول: الاستفادة مما نبَّه عليه شراح شعر أبي الطيب من أن لفظة "الملك" التي في هذا البيت تروى بفتح الميم وضَمِّها، وأن من رواها بالفتح أراد الخليفة، ومن رواها بالضم أراد المملكة، وكأن القاضي محيى الدين يريد أن يقول: إن هذا العهد ليس كغيره من العهود، لأنه عهدٌ على عاتق الملك السلطان قلاوون، وعلى عاتق الدولة نجاده، والمولى Y من ورائهما يُمْضِيه ويحميه.

الآخر: امتداح ولي العهد/ الأشرف خليل بما امتدح به أبو الطيب المتنبي سيف الدولة في هذه القصيدة بعامة، وفي البيتين اللذين بعد هذا البيت بخاصة وهما[1]:

---

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، ١١٧/٨-١١٨.

(٢) أشار إلى هذا الأستاذ أحمد الزين – رحمه الله –، ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، ١١٧/٧ هامش رقم٥.

(٣) أشار إلى هذا – أيضًا – الأستاذ أحمد الزين – رحمه الله –، ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، ١١٧/٨ هامش رقم٧.

تحارِبُــهُ الأعــداءُ وهــي عبــادُهُ ∴ وتــذْخِرُ الأمــوالَ وهــي غنائِمُــه

ويستكبرون الـدَّهْرَ والـدَّهْرُ دونَـهُ ∴ ويستعظمون الموتَ والموتُ خادِمُه

وأما بيت أبي تمام فهو – كما أشرت من ذي قبل – قد جاء في ختام قصيدة مشهورة للشاعر في مديح مالك بن طوق، وأزيد هاهنا فأقول: وهو – أيضًا – آخر مجموعة الأبيات التي أثنى فيها الشاعر على مدحته حيث قال مخاطبا الممدوح[٢]:

يــا مالــكُ اســتودْعتِنَي لــك مِنَّــةً ∴ تَبْقَــى ذِخَائِرُهَــا علــى الأحقــاب

يــا خاطبًــا مــدحي إليــه بجــودِهِ ∴ ولقــدْ خَطَبْــتَ قليلــةَ الخُطَّــابِ

خُــذْهَا ابْنَــةَ الفِكْــرِ المهَــذَّبِ فــي الــدُّجَى ∴ والليــلُ أســودُ رقعــةِ الجلبــابِ

بِكْــرًا تُــوَرَّثُ فــي الحيَــاةِ وتَنْثَنِــي ∴ فــي الســلم وهــي كثيــرةُ الأســلابِ

ويَزيــدُهَا مَــرُّ اللَّيَــالي جِــدَّةً ∴ وتقــادُمُ الأيَّــام حُسْــنَ شــبابِ

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي بتحقيق د. عبدالوهاب عزام، سلسلة الذخائر، العدد الأول، ص٢٤٨، هامش رقم ٣.

(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، مصدر سابق، ١/٩٠- ٩١، وشرح ديوان أبي تمام للشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، ١/٥٢-٥٣.

وفيَ تصوري أن القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر قد سَقط على بيت أَبي تمام هذا الأخير، وأدرجه في سياق كلامه النثري ليشير به إلى أمرين:

الأول: أنه أرهق نفسه في كتابة هذا التقليد في ليلة حالكة السواد، جثم فيها على قلبه وصدره ظلامُ الليل، وألمُ الحزن على ولي العهد الشاب الذي اغتالته يد الكيد والحقد، والإلحاحُ المستمر من الأشرف خليل الذي يرغب في اهتبال سكرة السلطان الثاكل للقفز على ولاية عهد السلطنة.

والآخر: أنه على الرغم من هذه الظروف السيئة التي كانت تكتنف القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر أثناء كتابة هذا التقليد؛ على الرغم من هذه الظروف جاء الكتاب آية من آيات الفن الرفيع، ونصًّا من نصوص الأدب الخالد التي تتجاوز حدود زمانها ومكانها وبواعث إبداعها لتصبح نماذج تقرأ في كل عصر، ويحتذيها كل كاتب، ويستنطقها كل عالم، ويملأ الإعجاب بها كل نفس.

كان هذا بعض ما يشير إليه إدراج خامس أبيات أبي تمام السابقة في غضون حديث القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر النثري إشارة صريحة، والمسكوت عنه في هذا الخطاب هو أن صاحبه يضع نفسه في دنيا الترسل بإزاء مقام أبي تمام في دولة الشعر.

نتائج الدراسة

لقد حاولت في المباحث الأربعة السابقة الحديث عن تراث الترسُّل الديواني للقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر من حيث أنواعه، ومظانه،

وموضوعاته، وجماليات الاقتباس من القرآن الكريم، والتراث الشعري في نصوصه، وأريد الآن التوقف لرصد أهم ما توصَّلْتُ إليه من نتائج، وهي:

١- أفضى بنا البحث في مصادر التاريخ والأدب إلى الوقوف على واحد وثلاثين نصًا كاملاً من نصوص ترسله الديواني جاءت مبثوثة في ثنايا "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، و"تشريف العصور في سيرة الملك المنصور" للمترسل نفسه القاضي محيى الدين بن عبدالظاهر، و"الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور" لشافع بن علي العسقلاني المصري المتوفى ٧٣٠هـ، والجزء الثامن من كتاب: "كنز الدرر وجامع الغرر" لأبي بكر عبدالله بن أيبك الدواداري المتوفى ٧٣٢هـ وعنوانه "الدُّرَّة الزكِيَّة في أخبار الدولة التركية"، "ونهاية الأرب في فنون الأدب" لشهاب الدين النويري المتوفى ٧٣٣هـ، و"الوافي بالوفيات" لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي المتوفى٧٦٤هـ، و"فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي المتوفى ٧٦٤هـ، و"صبح الأعشى في صناعة الإنشا" لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي المتوفى ٨٢٤هـ، و"عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" لبدر الدين محمود العيني المتوفى ٨٥٥هـ، وغيرها.

٢- صنعت جريدة بهذه النصوص، وقد اجتهدت في ترتيبها ترتيبًا تاريخيًا بقدر الجهد والطاقة، مستعينًا في ذلك بما ورد فيها من إشارات إلى أحداث تاريخية، وبما ورد في التقديم لها من أسماء المكتوب بها عنهم، أو المكتوب بها لهم، ومالم أستطع تحديد تاريخ كتابته تحديدًا دقيقًا جعلته بآخر الجريدة.

٣- تدلنا نصوص هذه الرسائل على أن القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر قد كتب في كل أنواع المكاتبات الديوانية من التقاليد، والتواقيع، والتفاويض، والمناشير، والعهود، والتذاكر، وأجوبة الكتب، وكتب البشارة بالفتوح، والتهنئة بها، وغيرها.

٤- تدلنا هذه النصوص على كثير من الخلط والاضطراب، وعلى فنون من الأباطيل والتُّرَّهات التي تمتلئ بها سجلات التاريخين السياسي والأدبي للأمة العربية، ولست أرمي علماءنا بعيب؛ فقد تكون هذه الأخطاء من أوهام جهلة النُّسَّاخ، أو من إضافاتهم، أو من تَزَيُّدِهم، أو من عدم الدقة في قراءة هذه الكتب في أصولها الخطية عند محاولة طبعها ونشرها، وهو أَمْرٌ يوجب - على كل حال - على شيوخ أهل العلم في زماننا إعادة تحقيق هذه الكتب تحقيقًا علميًا دقيقا يتغيَّا تصحيح ما بها من الأخطاء، حتى تتمكن الأجيال اللاحقة من الانتفاع بهذه الكتب الموسوعية على نحو أفضل، ولقد حاولت أن أصحح - بقدر ما أسعف الجهد- كل ما وجدت به خطأ من النصوص التي اقتبستها في هذا البحث.

٥- تدلنا نصوص هذه الرسائل أن طبقة كتاب ديوان الإنشاء كانت تشكل في مصر المملوكية ما يمكن أن يسمى بتعبيراتنا المعاصرة مجتمع النخبة، ولقد كانت هذه النخبة تحرص على ثلاثة أمور أولها: رضا السلاطين ومن دار في فلكهم من أمراء المماليك والوزراء، والوزراء من أرباب السيوف خاصة، وثانيها: المكاسب المادية الهائلة، والمستوى المعيشي الرغيد الذي كانت ترفل فيه، وثالثها: توريث مناصبهم في الديوان لأبنائهم وأحفادهم حتى يظلوا من بعدهم في بحبوحة من العيش وسعة، ومن ثمَّ كان أكثرهم لا يجد غضاضة في إراقة ماء وجهه على أعتاب هؤلاء السلاطين والأمراء والوزراء مثلما كان يفعل القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر الذي كان يعد نفسه عبدًا من عبيد الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا.

٦- وتدلنا هذه النصوص - أيضًا - على أن هذا المجتمع النخبوي عاش بمعزل تام عن حياة الشعب المصري، لذا لم تكن تصيبه ما كان

يصيب أبناء هذا الشعب من أوبئة وأمراض، ولم يكن يشعر بما كان يعانيه الناس من جراء نقص الفيضان من هلاك الزرع والضرع، صحيح أن هؤلاء الكتاب كانوا يدبِّجون الرسائل في البشارة بوفاء النيل، وكانوا يخرجون مع السلاطين وكبار رجال الدولة للاحتفال بيوم الوفاء في الخامس عشر من أغسطس من كل عام، وللقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر رسالة في هذا الغرض من أغراض الترسل الديواني المصري، ولكننا لم نقرأ لواحد منهم نصا في وصف يدعو فيه سلطانه، أو أحد وزرائه إلى إنصاف الفلاح، وإعطائه حقه، وكفّ أيدي أمراء المماليك عنه.

٧- وتدل هذه النصوص على أن الدولة المصرية كانت تحرص على المحافظة على نسيج المجتمع المصري بجميع طوائفه من المسلمين والمسيحيِّين واليهود، وكانت تصدر التوقيعات من ديوان الإنشاء بتعيين رءوساء طوائف المسيحيين واليهود مثلما كانت تصدر بتعيين قضاة المذاهب الأربعة وقضاة قضاتهم سواء بسواء.

٨- أسرف القاضي محيي الدين بن عبدالظاهر من الاقتباس من القرآن الكريم في نصوص هذه الرسائل، ويكفي في التدليل على هذا الإسراف أنه اقتبس في رسالة واحدة من رسائله؛ وهي الرسالة التي كتبها بولاية عهد السلطنة بمصر والشام للأشرف خليل؛ اقتبس فيها ثلاثة وعشرين نصا قرآنيًا كريمًا من ثماني عشرة سورة من سوره، ولقد كان الكاتب يمهِّد للآية القرآنية، أو الجملة القرآنية قبل الإتيان بها، ولقد تجلَّت في هذا التمهيد براعة الكاتب، ودلَّت هذه الاقتباسات على حفظ الكاتب الجيد لآيات الكتاب العزيز، وعلى معرفته بأسباب النزول، وكست كلامه حسنا وفخامة.

٩- أولع الكاتب بإيراد النصوص الشعرية في غضون كتاباته النثرية، وقد جرى على عادته هذه – أيضًا – في ترسُّلِه الديواني متجاهلاً أقوال نقدة النثر العربي الذين لا يجيزون هذا الصنيع، حيث ضمَّن رسائله عددًا من نصوص كتاب ديوان الحماسة لأبي تمام، وعددًا آخر من نصوص دواوين زهير بن أبي سلمى المزني، وأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وأبي الطيب المتنبي، وابن زيدون، وغيرهم.

ولقد نطقت هذه النصوص الشعرية بما عجز عن النطق به كاتبنا في أحيان كثيرة كما نرى على سبيل المثال في استعانته بأبيات الشاعر الفارس عمرو بن معديكرب الزبيدي التي أوردها أبو تمام في حماسته للإشارة إلى دور الأشرف خليل في مقتل أخيه الصالح علي، وكما نرى في استعانته بمختتم إحدى قصائد أبي تمام في مديح مالك بن طوق للإشارة إلى مكانته في عالم الترسُّل.

قائمة المصادر والمراجع

١. أعيان العصر وأعوان النصر، لصلاح الدين الصفدي، حققه الدكتور علي أبو زيد وزملاؤه، قدم له مازن عبدالقادر المبارك، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٢. إغاثة الأمة بكشف الغمة، لتقي الدين المقريزي، تقديم د. سعيد عبدالفتاح عاشور، كتاب الهلال، العدد ٤٧٢، القاهرة، إبريل ١٩٩٠م.

٣. الإلحاد في الغرب، للدكتور رمسيس عوض، اشتركت في نشره دار سينا بالقاهرة، والانتشار العربي ببيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٤. الأمالي، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي، طبعة دار الكتب المصرية، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٥. إنباء الغُمْر بأبناء العُمْر، للحافظ ابن حجر العسقلاني، المجلد الثالث، تحقيق وتعليق الدكتور حسن حبشي، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.
٦. البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، للدكتورة سعاد ماهر، دار الكاتب العربي للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.
٧. بدائع الزهور في وقائع الدهور، لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، الجزء الأول، القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
٨. البرهان في وجوه البيان، لأبي الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان ابن وهب الكاتب، تحقيق الدكتور حفني محمد شرف، نشر مكتبة الشباب بالقاهرة، ١٩٦٩م.
٩. البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، بتحقيق وشرح الأستاذ عبدالسلام محمد هارون، الجزء الأول، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
١٠. تاريخ الأدب العربي، ٦، عصر الدول والإمارات، مصر والشام، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.
١١. تاريخ الرسل والملوك، لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، د.ت.
١٢. تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الملوك والخلفاء والنواب، لصلاح الدين الصفدي، تحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي، وزهير حميدان الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، إحياء التراث العربي، العدد ٨٦، دمشق ١٩٩٢م.

١٣. تذكرة النبيه بأيام المنصور وبنيه، لابن حبيب الحلبي، تحقيق الدكتور محمد محمد أمين، مراجعة الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م.
١٤. تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، للقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر، تحقيق الدكتور مراد كامل، ومراجعة الشيخ محمد علي النجار، سلسلة تراثنا، نشر الإدارة العامة للثقافة بوزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د.ت.
١٥. التعريف بمصطلح الشريف، للقاضي شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله العمري، طبع بمطبعة العاصمة، بحوش الشرقاوي بمصر، على نفقة صاحبها محمد مسعود، سنة ١٣١٢هـ.
١٦. التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، لمحمد قنديل البقلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.
١٧. التناص وإشاريات العمل الأدبي، لصبري حافظ، مقال بمجلة البلاغة المقارنة ألف، العدد الرابع، ربيع ١٩٨٤م.
١٨. التناص في شعر ابن نباتة المصري، للدكتور عوض علي الغباري، بحث منشور بمقدمة ديوان ابن نباتة المصري، سلسلة الذخائر، العدد٦٠، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٧م.
١٩. ثمرات الأوراق، لابن حجة الحموي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
٢٠. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، طبعة دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠م.
٢١. جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، لأحمد زكي صفوت، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.

٢٢. حسن المحاضرة في أخبارمصر والقاهرة، لجلال الدين السيوطي، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
٢٣. الحياة العربية من الشعر الجاهلي، للدكتور أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة، الطبعة الخامسة، القاهرة، ١٩٧٢م.
٢٤. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جادالحق، أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
٢٥. الدر النظيم من ترسُّل عبدالرحيم، للقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر، تحقيق الدكتور أحمد أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٩م.
٢٦. ديوان تأبط شرًّا وأخباره، جمع وتحقيق وشرح على ذوالفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
٢٧. ديوان ابن تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.
٢٨. ديوان الحماسة، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق الدكتور عبدالمنعم صالح، طبع سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، العددان٤، ٥ ، إبريل، ومايو١٩٩٦م.
٢٩. ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبدالعظيم، طبع نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٠م.
٣٠. ديوان السموأل، وفي الصفحة التي تلي الغلاف: شعر السموأل، تحقيق وشرح عيسى سابا، مكتبة صادر، بيروت د.ت.
٣١. ديوان المتنبي، تحقيق وتعليق الدكتور عبدالوهاب عزام، طبعة

سلسلة الذخائر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد الأول، القاهرة، ١٩٩٥م.

٣٢. ديوان المتنبي، وفي أثناء متنه شرح العلامة الإمام الواحدي، وأربعة فهارس، تأليف الشيخ المعلم فريدرخ ديتريصى، المدرس بالمدرسة الكلية البرلينية، الناشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

٣٣. رائية جمال الدين التبريزي في واقعة مرج الصُّفُرَّ: مقاربة تحليلية، للدكتور نبيل محمد رشاد، نشر مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

٣٤. رفع الإصر عن قضاة مصر، لابن حجر العسقلاني، تحقيق الدكتور علي محمد عمر، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٧م.

٣٥. الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزيَّة القاهرة، للقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر، حقَّقه وقدّم له وعلَّق عليه الدكتور أيمن فؤاد سيِّد، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

٣٦. الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، للقاضي محيي الدين بن عبدالظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م.

٣٧. سكردان السلطان ، لابن أبي حجلة التلمساني، تحقيق الدكتور علي محمد عمر، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢١- ١٩٨١م.

٣٨. السلوك لمعرفة دول الملوك، لتقي الدين المقريزي، الجزء الأول، القسم الثالث، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٩م.

٣٩. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت
٤٠. شرح ديوان أبي تمام، لمحمد محيي الدين عبدالحميد، الجزء الأول، مكتبة صبيح، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.
٤١. شرح ديوان الحماسة، لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، نشرة الأستاذين: أحمد أمين، وعبدالسلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م.
٤٢. شرح ديوان زهير بن أبي سُلَمَى، صنعة أبي العباس أحمد بن يحيي ثعلب، طبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
٤٣. الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، سلسلة ذخائر العرب، دار المعارف، القاهرة، طبعة١٩٨٢م.
٤٤. شعر عمرو بن معد يكرب الزُّبَيْدي، جمعه ونسَّقه مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية، ١٠٤٥هـ- ١٩٨٥م.
٤٥. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، طبع سلسلة الذخائر، قدم لها الدكتور فوزي محمد أمين، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب الخديوية، الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة، أواخر عام ٢٠٠٤م، وعام٢٠٠٥م.
٤٦. الصمة بن عبدالله القشيري حياته وشعره، جمعه وحققه وشرحه ووضع فهارسه الدكتور خالد عبدالرءووف الجبر، دار المناهج للنشر والتوزيع، عَّمان، الأردن، ٢٠٠٣م.
٤٧. العصر المماليكي في مصر والشام، للدكتور سعيد عبدالفتاح

عاشور، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧٦م.
٤٨. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، لبدر الدين محمود العيني، حققه ووضع حواشيه الدكتور محمد محمد أمين، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الثاني، القاهرة، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
٤٩. علم التناص والتلاص، عزالدين المناصرة، سلسلة كتابات نقدية، العدد ١٩٩، الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة، ٢٠١١م.
٥٠. الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، لابن ظهيرة، تحقيق مصطفى السقا، وكامل المهندس، طبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م.
٥١. الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، لشافع بن علي العسقلاني المصري الكاتب، تحقيق الدكتور عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
٥٢. الفن ومذاهبه في النثر العربي، للدكتور شوقي ضيف، الطبعة الثامنة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.
٥٣. الاقتباس من القرآن الكريم، لأبي منصور الثعالبي، تحقيق الدكتورة ابتسام مرهون الصفار، تقديم الدكتور عبدالحكيم راضي، الجزء الأول، نشر سلسلة الذخائر، العدد رقم ١٠٧، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، أول نوفمبر ٢٠٠٣م.
٥٤. قضايا الحداثة عند عبدالقاهر الجرجاني، للدكتور محمد عبدالمطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٥م.
٥٥. كنز الدرر وجامع الغرر، لأبي بكر بن عبدالله بن أيبك الدواداري، الجزء الثامن، تحقيق أولرخ هارمان، طبع بمطبعة عيسى البابي

الحلبي بالقاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.
٥٦. لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبدالله علي الكبير وزملائه، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
٥٧. لذة النص، رولان بارت، ترجمة فؤاد صفا والحسين سبحان، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، وطبعة أخرى ترجمة منذر عَيَّاشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.
٥٨. مآثر الإناقة في معالم الخلافة، لأبي العباس أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، جزءان، الكويت، ١٩٦٤م.
٥٩. المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول، للدكتور فوزي محمد أمين، الطبعة الأولى، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
٦٠. المحاسن والمساوئ، لإبراهيم بن محمد البيهقي، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، سلسلة ذخائر العرب، العدد ٦١، دار المعارف، القاهرة.
٦١. المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، للدكتور عبدالعزيز حمودة، سلسلة عالم المعرفة العدد٢٣٢، الكويت، إبريل ١٩٩٨م.
٦٢. مطالع البدور في منازل السرور، لعلاء الدين الغزولي، نشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة، عام ١٤١٩هـ - ٢٠٠٠م.
٦٣. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، للأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي، طبعة دار الشعب، القاهرة، د.ت.
٦٤. معيد النعم ومبيد النقم، لتاج الدين السبكي، تحقيق محمد علي النجار وزميليه، الطبعة الثانية، مطبعة الخانجي، القاهرة ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
٦٥. مقامات الحريري، لأبي محمد القاسم بن علي الحريري، مكتبة

ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، بالقاهرة، د.ت.
٦٦. ملحدون محدثون ومعاصرون، للدكتور رمسيس عوض، اشتركت في نشره دار سينا بالقاهرة، والانتشار العربي ببيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
٦٧. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، لأبي المحاسن جمال الدين يوسف ابن تغري بردي الأتابكي، الجزء الخامس، حققه ووضع حواشيه دكتور نبيل محمد عبدالعزيز، مركز تحقيق التراث، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.
٦٨. مواد البيان، لعلي بن خلف الكاتب، تحقيق الدكتور حسين عبداللطيف، منشورات جامعة الفاتح، طبعة ١٩٨٢م.
٦٩. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، سلسلة تراثنا، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د.ت.
٧٠. نقد النثر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، حقَّقه وعلَّق حواشيه الدكتور طه حسين بك، وعبدالحميد العبادي، طبعة خاصة بوزارة المعارف العمومية، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٣٩م.
٧١. نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري (ت٧٣٣هـ):
أ- السفر الثامن، صححه الأستاذ أحمد الزين، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، سلسلة تراثنا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، د.ت.
ب- الجزء الثلاثون، تحقيق الدكتور محمد عبدالهادي شعِيرة، ومراجعة

الدكتور محمد مصطفى زيادة، مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

ج- الجزء الحادي والثلاثون، تحقيق الدكتور الباز العريني، ومراجعة الدكتور عبدالعزيز الأهواني، نشر مركز تحقيق التراث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٢هـ- ١٩٨٢م.

٧٢. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، للإمام فخر الدين الرازي، تحقيق ودراسة الدكتور بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، أكتوبر، ١٩٩٥م.

٧٣. الوافي بالوافيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، (ت٧٦٤هـ):

أ) الجزء العاشر، باعتناء جاكلين سوبله، وعلى عمارة، طبع على نفقة وزارة الأبحاث العلمية والتكنولوجية التابعة لألمانيا الاتحادية، بإشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، على مطابع دار صادر، بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

ب) الجزء السابع عشر، باعتناء دوروتيا كرافولسكي، طبع على نفقة الجمعية الألمانية للبحث العلمي، بإشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، على مطابع دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

ج) الجزء الثاني والعشرون، تحقيق رمزي بعلبكي، الطبعة الثانية، طبع على نفقة وزارة الأبحاث العلمية والتكنولوجية، التابعة لألمانيا الاتحادية، بإشراف المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، على مطابع دار صادر، بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

٧٤. الوشي المرقوم في حل المنظوم، لضياء الدين بن الأثير، تحقيق يحيي عبدالعظيم، تقديم دكتور عبدالحكيم راضي، الهيئة العامة

لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، العددان١٢١، القاهرة، أول يوليو ٢٠٠٤م.